الكتـاب الخامس

الفصل الأول

1- وراء سفوح الألب تبدأ إيطاليا المعاصرة. وعادة ما كان القدماء يدعون إيطاليا باسم واحد، هو إينوتريا، مع إنها كانت تمتدّ من خليج صقليا حتّى خليج تارانت وبوسيدونيا؛ ثمّ أخذ اسم إيطاليا يغلب بعد ذلك وامتدّ حتّى شمل سفوح الألب؛ عدّاك عن هذا أن هذا الاسم لم يُعرف به شطر من ليغيستيكا، من حدود تيرينيا إلى نهرفار وبحر تلك المنطقة وحسب، بل عرف به أيضاً جزء من إيستريا حتّى بولا. ونحن يمكننا أن نفترض أن الأقوام التي دعيت أولاً بالإيطاليوتية، قد تفوّقت، ونتيجة لتفوّقها أعطت هذه التسمية إلى القبائل المجاورة، وعلى هذا النحو امتدّ الاسم وشاع حتّى زمن السيطرة الرومانية. ولكن، بعد أن منح الرومان الإيطاليوتيين مؤخراً حقوق المواطنية، قرروا منح الحقوق عينها للغلاطيين الذين يسكنون على هذا الجانب من الألب، كما منحوها للجينيتيين[1] أيضاً، وأطلقوا على هؤلاء كلّهم اسم إيطاليوتيين ورومان، ثمّ أخذوا يؤسسون في مناطقهم كثرة من المستعمرات، بعضها بنوه في زمن مبكر وبعضها الآخر فيما بعد؛ وليس من السهل أن نشير إضافة إلى هذه المستعمرات، إلى أخرى أفضل منها.

2- وعلى هذا النحو فإنه يصعب أن نتصوّر إيطاليا المعاصرة كلّها في شكل هندسي بسيط، مع أنهم يقولون[2] إنها عبارة عن رأس بحرية مثلثة الشكل، ممتدّة نحو الجنوب ونحو مطلع الشمس شتاء، برأس عند مضيق صقليا وقاعدة عند الألب. ويتأتّى لنا أن نوافق أيضاً على أن إحدى أضلاع المثلث، تلك التي تنتهي عند مضيق صقليا، تشاطئ البحر التيريني. لكنّ المثلث بالمعنى الدقيق للكلمة، هو شكل يتألف من خطوط مستقيمة، بينما لدينا في الحالة المعطاة قاعدة محدّبة وضلع محدّبة، ولذلك فإنني إذا قلت «يتأتّى أن نوافق»، فإنه يجب عليّ أن أقبل بأن قاعدة المثلث وضلعه شكلان محدّبان، كما ينبغي أن أوافق أيضاً على أن هذه الضلع تميل نحو مشارق[3]

الشمس. أمّا فيما يخصّ باقي وصف هؤلاء الكتّاب، فإنه غير صحيح، لأنهم يظنّون أن ضلعاً واحدة تمتدّ من منخفض البحر الأدرياتيكي حتّى مضيق صقليا. فنحن لا نسمّي إلاّ الخطّ الخالي من الزوايا «ضلعاً»، والضلع ليس لها زوايا عندما لا تتلاقى أجزاؤها البتّة، أو تتلاقى بعض الشيء. بيد أن الخطّين من أريمين حتّى رأس يابيغيا، ومن مضيق صقليا حتّى الرأس المذكورة، يقترب واحدهما من الآخر اقتراباً كبيراً. وهذا نفسه ينسحب كما أرى، على العلاقة بين الخطّ الممتدّ من منخفض البحر الأدرياتيكي، والخطّ الممتدّ من يابيغيا، لأنهما إذ يلتقيان في منطقة أريمين والسهل، يشكّلان زاوية، أو في أقلّ تقدير التواء كبيراً. وعليه، فإنه إذا كان الأمر على هذه الحال فعلاً، فإن المسافة (خطّ الإبحار الساحلي من منخفض البحر الأدرياتيكي حتّى يابيغيا)، وإن كانت ضلعاً واحدة، إلاّ أنها ليست مستقيمة في أيّ حال من الأحوال. ويمكننا أن نتصوّر ما تبقى من المسافة من هنا حتّى مضيق صقليا، بمثابة ضلع أخرى، لكنّها بدورها ليست مستقيمة. وعلى هذا النحو يغدو بإمكاننا أن ندعو هذا الشكل شكلاً رباعيّ الأضلاع أكثر منه ثلاثي الأضلاع، إلاّ أنه ليس مثلثا بأيّ شكل كان (إلاّ إذا استخدمنا هذا المصطلح استخداماً خاطئاً). والموقف الأمثل هنا، هو أن ندرك أنه لا يمكن رسم الأشكال غير الهندسية بخطوط دقيقة.

3- أمّا الأجزاء القائمة بذاتها، فيمكن أن نقول عنها الآتي. إن قاعدة الألب محدّبة وشكلها كشكل الخليج البحري مع منخفض يتّجه نحو إيطاليا. ويقع وسط الخليج في منطقة السالاسيين، وينعطف أحد طرفيه حتّى أوكرا[4] ومنخفض البحر الأدرياتيكي، وينعطف الطرف الآخر نحو الساحل الليغوري حتّى جنوا، ميناء الليغوريين التجاري، حيث تتّصل جبال الأبينين بالألب. وعند سفوح الألب مباشرة ينبسط سهل كبير إلى حدّ ما، طوله وعرضه متساويان تقريباً: 2100 مرحلة. جهته الجنوبية محصورة بين ساحل الجينيتيين وجبال الأبينين التي تمتدّ حتّى منطقة أريمين وأنكونا. فهذه الجبال تمتدّ من ليغوريا حتّى تيرينيا، ولا تترك سوى شريط ساحليّ ضيّق. ثمّ لا تلبث أن تتراجع في المنطقة الداخلية إلى أن تصل إلى منطقة بيسان، فتنعطف شرقاً وإلى البحر الأدرياتيكي حتّى منطقة أريمين وأنكونا، وأخيراً على خطّ مستقيم تتّصل بساحل الجينيتيين. وعلى هذا النحو فإن سلتيا التي على هذا الجانب من الألب، تنحصر داخل هذه الحدود، ويبلغ طول الساحل مع الجبال حوالي 6300 مرحلة، وعرضهما أقلّ من 2000[5] بقليل. أمّا ما تبقى من إيطاليا فهو ضيّق ومتمدّد طولاً برأسين في النهاية: إحدى الرأسين عند مضيق صقليا، والأخرى عند يابيغيا؛ وهي محصورة من الجانبين: بالبحر الأدرياتيكي من جهة، وبالبحر التيريني من الجهة

الأخرى، إن شكل البحر الأدرياتيكي وحجمه يشبهان ذلك الجزء من إيطاليا المحدود بجبال الأبينين وبالبحرين وصولاً حتّى يابيغيا والبرزخ الواقع بين خليجيّ تارانت وبوسينيوس. فالحدّ الأقصى لعرض كلّ من هذين البحرين حوالي 1300 مرحلة، وطوله أقلّ بقليل من 6000 مرحلة[6]. أمّا الجزء الباقي من إيطاليا، فهو المنطقة التي يشغلها البريتيون وجزء من اللوكانيين. وبحسب بوليبيوس[7]، أن الخطّ الساحلي برّاً من يابيغيا حتّى مضيق صقليا يشكّل حوالي 3000 مرحلة، وهو يشاطئ البحر الصقلي، أمّا إذا أبحرت بحراً فإنه أقلّ من 500 مرحلة. وإذ تبلغ جبال الأبينين منطقة أريمين وأنكونا وتحدّد بذلك عرض إيطاليا من البحر إلى البحر، تنعطف مرّة أخرى لتقطع البلاد كلّها بالطول. والحقيقة أن الأبينين حتّى منطقة البيفكيتيين واللوكانيين تتراجع قليلاً عن البحر الأدرياتيكي، لكنّها ما إن تصل إلى منطقة اللوكانيين، حتّى تميل أكثر نحو البحر الآخر، ثمّ تجتاز ما تبقى من الطريق عبر مركز منطقة اللوكانيين والبريتيين، لتنتهي عندما يسمّى ليكو بيترا[8] في منطقة ريغوس. وبهذا أكون قد قدّمت بالملامح العامّة، وصفاً كافياً لإيطاليا المعاصرة. وسوف أحاول الآن بدءاً من البداية، أن أتحدّث بالتفصيل عن كلّ جزء من أجزائها على حدة، وعن المنطقة المجاورة للألب أولاً.

4- وهذه المنطقة هي عبارة عن سهل غنيّ مزروع بهضاب خصبة، يشطره نهر باد في تمام منتصفه تقريباً، فيدعى أحد شطريه بالبلاد التي على هذا الجانب من نهر باد، ويدعى الآخر بالبلاد التي على ذلك الجانب من نهر باد[9]. وهذا الجانب هو كلّ ما يقع عند جبال الأبينين وليغوريا، أمّا ذلك الجانب، فهو باقي الأراضي كلّها. وتقطن في هذه الأخيرة، الأقوام الليغورية والسلتية: فريق في الجبال، والآخرون في السهول، ويقطن ذلك الجانب السلتيون والجينيتيون. والسلتيون هم أقارب الأقوام التي تعيش وراء الألب، أمّا فيما يتعلّق بالجينيتيين، فثمّة وجهتا نظر مختلفتان. فبعضهم يزعم أن الجينيتيين هم أيضاً مستعمرون يحملون اسم السلت[10] الذين يعيشون على ساحل المحيط؛ بينما يرى البعض الآخر، إن فريقاً من الجينيتيين جاء إلى هنا من بافلاغونيا[11] مع أنتينور، ليجد ملجأ من جحيم حرب طروادا. ويسوقون دليلهم على ذلك، شغف هؤلاء بتربية الخيول التي اختفت الآن تماماً، مع أنها كانت فيما مضى عملاً يفاخرون به في سياق التنافس التقليدي القديم بتوليد المهرات لتربية البغال. وهذا ما ذكره هوميروس أيضاً:

الذين قادهم من أرض إينيتوي، حيث تسرح البغال البـرّية.

(*الإلياذا* II، 852).

وكذلك فعل ديونيسيوس[12]، تيران صقليا، إذ أنشأ من الخيل التي جمعها من هناك، مربى أفراس لجياد السباق، وعليه فإن طريقة استنبات المهور وراثياً وترويضها،

كانت شائعة وشهيرة عند الإغريق، وقد حظي هذا النوع على مدى زمن طويل، بتقدير عالٍ جداً.

5- وهذه البلاد كلّها بلاد غنية بالأنهار ومليئة بالمستنقعات، خاصة الجزء الذي يشغله الجينيتيون. عدّاك عن أن هذا الجزء يعاني من تأثير البحر عليه. ففي أجزاء بحرنا هذه وحدها تقريباً، تحدث ظاهرات شبيهة بظاهرات المحيط، وفيها فقط يلاحظ حدوث المدّ والجزر اللذين يشبهان المدّ والجزر في المحيط، الأمر الذي يؤدّي إلى امتلاء الجزء الأكبر من السهل ببحيرات من مياه البحر، ولذلك تقطع السهل قنوات وسدود تشبه ما يسمّى في مصر بالأراضي السفلى، وفي الوقت الذي جففت فيه بعض أجزاء السهل واستثمرت، فإن أجزاءه الأخرى يمكن عبورها بالسفن. وثمّة مدن هنا تعدّ جزراً، وأخرى لا تشاطئ الماء إلاّ جزئياً. وما يثير الدهشة، هو سهولة الوصول إلى كلّ المدن الواقعة على المستنقعات في داخل البلاد، عندما تبحر في مجاري الأنهار صعوداً، خاصة في نهر باد. فهو بحقّ النهر الأكبر، الذي غالباً ما تملأ الأمطار الغزيرة وهطول الثلوج مجراه؛ ولكن بما أنه يتوزّع قرب منابعه إلى كثير من الفروع، فإنه يشكّل مصبّاً مقفراً تصعب الملاحة فيه. بيد أن التجربة تتجاوز هذه الصعوبات.

6- إذن، لقد عاش أكثر السلت قديماً، كما أشرنا[13]، في منطقة نهر باد. وكانت أكبر قبائل السلت هي قبيلة البويين، وقبيلة الإينسوبريين، وقبيلة السينونيين التي استولت في زمن ما بهجوم شنته مع الجيزاتيين على أراضي روما. ولكنّ الرومان دمّروا بعد ذلك هذه القبائل تدميراً تاماً، وطردوا البويين من هذه الأنحاء كلّها. فنزح البوييون إلى أراض على نهر إيستر حيث عاشوا مع التاوريسكيين، ودخلوا في حرب مع الداكيين استمرّت مشتعلة إلى أن أُبيدت قبيلتهم تماماً؛ أمّا أراضيهم في إيلليريا، فقد تركوها مراع لقطعان جيرانهم. ولكنّ الإينسوبريين لا يزالون موجودين حتّى أيامنا هذه. وباتت مديولان عاصمتهم، وكانت هذه قبل ذلك مجرّد قرية بسيطة (لأنهم كانوا يعيشون في قرى)؛ أمّا الآن فقد صارت إلى مدينة مهمّة على ذلك الجانب من نهر باد، وتكاد تلامس جبال الألب. وتقع على مقربة من الألب أيضاً، مدينة فيرونا، وهي بدورها مدينة كبيرة، ومدن أخرى أصغر: بريكيسا، ومانتويا، وريغوس[14]، وكوم. وكانت هذه الأخيرة من قبل بلدة لا أهمية لها، لكنّ بومبيوس سترابون، والد بومبيوس العظيم، اسكن هناك مستعمرين من جديد، بعد أن نهب الريتيون المدينة، وكان هؤلاء يقطنون فوقها. ثمّ زاد غايوس سيبيون 3000 مستعمر، أمّا قيصر الإلهي فقد ألحق بهم 5000 مستعمر كان بينهم 500 من أشراف الإغريق. وقد منح قيصر هؤلاء الأخيرين

obeikandi.com

حقـوق المواطنيـة الرومانيـة وأدخلـهم في عـداد المسـتعمرين. بيـد أن هـؤلاء لم يسـتقروا هنـاك، مـع أنهـم أعطـوا المسـتوطنة اسمهـا. وبالفعـل دعـي المسـتعمرون كلّهـم «نيوكوميين»، أي، بحسب الترجمة اللاتينية: نوفوم كوموم. وتقع على مقربة من هذا المكان، بحيرة تدعى لاريوس؛ يملؤها نهر أدوا بالماء، ثمّ يصبّ بعد ذلك في نهر باد. وتقع منابع أدوا في جبل أدولا، وهنا على هذا الجبل تقع أيضاً منابع الرين.

7- أمّا هذه المدن فإنها كلّها أعلى من المستنقعات بكثير؛ وليس بعيداً عنها تقوم مدينة باتافيوس، المدينة الأفضل بين مدن هذا الشطر من البلاد كلّها؛ فبحسب الإحصاء الذي أجري منذ بعض الوقت[15]، إن فيها 500 فارس، وكانت تجنّد في زمن ما 120.000 مقاتل، كما تبيّن كثرة البضائع التي ترسلها هذه المدينة إلى أسواق روما، وتنوّعها، إضافة إلى شتّى أنواع الألبسة، تبيّن مدى كثرة أعداد سكّانها ومهاراتهم في ميدان الصناعات الحرفية، وبعد أن تقطع السفن مسافة 250 مرحلة مبحرة من الميناء الكبير صعوداً مع مجرى النهر الذي يجري عبر المستنقعات، تصل إلى باتافيوس. ويدعى هذا الميناء ميناء ميدواك، كما يحمل النهر الاسم عينه. أمّا أكبر مدن المستنقعات، فهي مدينة رافينا المبنيّة كلّها على أوتاد، والتي تقطعها القنوات بحيث لا يمكن التنقل فيها إلاّ عبر الجسور أو بالقوارب. وفي أوقات المدّ تدخل المدينة كميات كبيرة من المياه البحرية، فتجرف من المدينة عبر القنوات، كلّ القاذورات المتراكمة، فيغدو هواء المدينة نقياً. وعلى أي حال فإن المكان يعدّ مكاناً صحّياً جدّاً، ولذلك أمر الحكّام بأن تبنى هنا مدرسة لتنشئة المصارعين وتدريبهم. ومن أهم معالم هذا المكان، إن هواء مستنقعاته ليس ضارّاً، كما هي الحال في إسكندرية مصر حيث تفقد البحيرة[16] صيفاً خاصاتها المؤذية بسبب فيضان الأنهار وجفاف المستنقعات. لكنّ خاصات داليات العنب هنا تثير بدورها العجب. فالداليات تنمو في المستنقعات، ولهذا السبب تثمر بسرعة وكثرة، لكنّها تهلك في غضون 4 أو 5 سنوات. كما تقع في منطقة المستنقعات أيضاً، مدينة ألتين التي تشبه من حيث موقعها مدينة رافينت. وتقع بين هاتين المدينتين، بلدة بوتريوس التابعة لرافينا، وكذلك سبينا، وهي الآن مجرّد قرية صغيرة، إلا أنها كانت في زمن ما مدينة إغريقية شهيرة. وعلى أي حال فإنهم يعرضون كنز السبينيتيين[17] في دلفي. ونشير في السياق إلى أن التاريخ يتحدّث عن سيطرة هؤلاء على البحر. وعدا عن هذا يزعمون أن المدينة كانت تقع على البحر. أمّا الآن فإنها تقع في داخل البلاد، وتبعد عن البحر حوالي 90 مرحلة، وتقول الرواية إن التساليين هم الذين أسّسوا رافينا. لكنّهم لما عجزوا عن مواجهة ضغوط التيرينيين،

قبلوا طوعاً بين صفوفهم عدداً محدوداً من الأومبريكيين الذين لا يزالون حتّى الآن يملكون المدينة؛ أمّا التساليون فقد عادوا إلى وطنهم. وعلى هذا النحو فإن هذه المدن محاط أكثر أجزائها بالمستنقعات، وهي تتعرض للفيضانات.

8- ولكنّ تأثير المستنقعات أضعف على أوبيتيرغيوس، وكونكورديا، وأتريا وفيكيتيا وسواها من المدن الصغيرة الأخرى، إلا أن هذه ترتبط مع ذلك بالبحر عبر قنوات صغيرة صالحة للملاحة. ويقولون إن أتريا كانت مدينة شهيرة، ومنها أخذ الخليج الأدرياتيكي[18] اسمه بعد إدخال بعض التغيير على اسمها. أمّا أكويليا التي تعدّ الأقرب إلى المنخفض الذي يشكّله الخليج الأدرياتيكي، فقد أسّسها الرومان حصناً لمواجهة البرابرة الذين كانوا يعيشون فوقها. ويبحرون إلى أكويليا في سفن تجارية تصعد مع مجرى نهر ناتيسون مسافة تزيد على 60 مرحلة[19]. وأكويليا هي ميناء القبائل الإيلليرية التي تقطن حول إيستر[20]. ويأتي هؤلاء من هنا بالبضائع الأجنبية، والنبيذ المعبّأ في دنان خشبية[21] (يشحنونها على زحافات)، وزيت الزيتون، ويتلقون[22] بدلاً منها العبيد، والمواشي، والجلود. ولا تقع أكويليا داخل حدود بلاد الجينيتيين. والحدّ بين هؤلاء وأولئك، هو نهر[23] يجري من الألب، ويمكن التوغل عبره مسافة 1200 مرحلة داخل البلاد، وصولاً إلى مدينة نوريا. وهنا خاض غينوس كاربون حروباً فاشلة ضدّ القمريين[24]. وتوجد في هذه الأنحاء مؤسّسات لغسل الذهب ومناجم حديد، تدر واردات كبيرة. ويقوم في منخفض الخليج الأدرياتيكي نفسه معبد يستحقّ التنويه، هو معبد ديوميدس- تيمان، فهنا يقع ميناء، ودغل مقدّس ساحر، وسبعة ينابيع مياه عذبة لا تلبث أن تشكّل نهراً واسعاً وعميقاً[25] يصبّ في البحر. ولكنّ بوليبيوس يقول، إن ينبوعاً واحداً منها مياهه عذبة، أمّا الأخرى فمياها مالحة، ولذلك يدعو السكّان المحلّيون هذا المكان منبع البحر وأمّه. أمّا بوسيدونيوس، فإنه على الضدّ من هذا يؤكّد أن تيمان نهر يجري من الجبال، ويهوي في الهاوية، ثمّ يجري تحت الأرض حوالي 130 مرحلة ليخرج إلى السطح عند البحر.

9- والدليل على سيادة ديوميدس على هذا البحر، هو جزر ديوميدس، إضافة إلى حكايات الرافيين وآرغوس الهيبي (وهذا ما سأتحدّث عنه لاحقاً[26] بالقدر الذي يخصّ التاريخ). أمّا الروايات والاختلاقات الأسطورية، فينبغي أن نتجاهل أكثرها، كما هي الحال مع أسطورة فايتون والهليادس اللواتي تحوّلن إلى شجرة حور على نهر إيريدان[27] (الذي لا وجود له في أي مكان على سطح الأرض، مع أنه يقع، كما يقال، على مقربة من نهر باد)؛ ومثلها أسطورة الجزر المرجانية الواقعة أمام باد، والغرغرات[28]

اللواتي فيها: لا وجود لمثل هذا في هذه البلاد. ولكنّ التاريخ يخبرنا أن الجييتيين كانوا يعظّمون ديوميدس. وهذه حقيقة، إذ لا يزال هؤلاء حتّى يومنا هذا يقدّمون له جواداً أبيض ذبيحة، ويدلّون على قطعتيّ أرض مقدّستين: واحدة لهيرا الآرغوسية، والأخرى لأرطميس الإيثولية. ويضيفون إلى هذه الحقائق، كما هو معروف في مثل هذه الأحوال، حكايات إعجازية[29]، وعلى وجه التحديد: إن الحيوانات الضارية تتحوّل في هذه الأدغال المقدّسة إلى حيوانات أليفة، وإن الأيائل تسرح مع الذئاب في القطيع عينه؛ والكواسر تسمح للناس إن تقترب منها وتربت عليها، وتعزف الكلاب عن مطاردة طرائدها عندما تلجأ هذه إلى هذه الأدغال. ويروى أن شخصية مرموقة معروفة باستعدادها لإعطاء الضمانات الأمر الذي جعله مثار سخرية الآخرين غير مرّة، قابل مرّة صيادين صادوا ذئباً. وفي سياق المزاح اقترح عليه هؤلاء أن يطلقوا الذئب من الشبكة، إذا ما أخذه هو على ضمانته وتعهّد بأن يدفع تعويضاً عمّا يمكن أن يتسبب به الذئب من أضرار. فوافق على ذلك. وعندئذٍ أطلق الصيادون الذئب، فصاد هذا قطيعاً من الجياد غير الموسومة وساقها إلى إسطبل هاوي إعطاء الضمانات. ولما تلقّى هذا الأخير هذه الهدية، وسم الأمهار كلّها التي كانت تتميّز بسرعة عدوها أكثر مما تتميّز بجمال شكلها، وسمها بوشم يحمل صورة الذئب ودعاها «بالتي تحمل وشماً في صورة ذئب» وقد حافظ خلفاؤه على هذا الوشم، وعلى اسم هذا النوع من الجياد، واعتمدوا تقليداً بألاّ تباع أمهاره إلى الغرباء لكي يبقى هذا النوع الأصيل عندهم فقط، وتبقى الجياد المحلّية هي النوع الأشهر. وأنا كنت قد أشرت سابقاً[30]، إلى أن هذه المهنة قد اختفت الآن تماماً. ويأتي بعد تيماف ساحل الإيستريسيين وصولاً حتّى بولا، وهو الساحل الذي يجاور إيطاليا. ويقع بين تيماف وبولا حصن ترجيستوس الذي يبعد 180 مرحلة عن أكويليا. وتقع بولا في خليج يشبه الميناء، وفيه جزر صغيرة خصبة فيها مراس ملائمة لرسوّ السفن، كان قد أسّسها في الأزمنة القديمة، الكولخيون الذين أرسلوا للبحث عن ديوميدس؛ ولما فشلوا في تحقيق هدفهم عاقبوا أنفسهم بالنفي، كما يقول كاليماخ:

... المدينة الصغيرة،

التي لو دعاها الإغريقي لدعاها «مدينة المنفى»،

لكنّها دعيت بلسانهم بولا[31].

ويسكن المناطق التي تلي نهر باد، الجينيتيون والإيستريسيون الذين يعيشون في الأراضي الممتدّة حتّى بولا. وإلى الأعلى من الجينيتيين يعيش الكارنيون،

والكينومـانيون، والميـدواليون، والسـيمبريون[32]. وقـد عـادى الرومـان فريـق مـن هـذه الأقوام، أمّا الكينومانيون والجينيتيون فقد كانوا حلفاءهم ضدّ هنيبعل (عندما كان الرومان يحاربون البويين والسيمبريين)، وبعده.

10- وعلى هذا الجانب من نهر باد تملك الأقوام التي تعيش هنا الأراضي كلّها، بما فيها جبال الأبينين في جهة الألب وصولاً إلى جنوا والساباتيين. وقبل ذلك كان البوييون، والليغوريون، والسينونيون، والجيزاتيون، يشغلون الجزء الأكبر من هذه البلاد. ولكن، بعد طرد البويين، وتدمير السنونيين والجيزاتيين[33]، لم يبق هنا الآن سوى القبائل الليغورية والمستوطنات الرومانية. كما اندغمت بالرومان قبيلة الأومبريكيين، وفي بعض الأماكن، قبيلة التيرينسيين. وقبيل الصعود الجامح للرومان، كان يدور بين هذين القومين صراع على الزعامة، ولأنه لم يكن يفصل بينهما سوى نهر التيبر، فقد كان من السهل على كلّ منهما أن يعبر إلى الآخر. ولو حصل وشنت إحدى القبيلتين حملة ضدّ قبيلة ثالثة، فإن الغيرة لا تلبث أن تدفع القبيلة الثانية إلى غزو البلاد نفسها. فعندما أرسل التيرينسيون مقاتليهم ضدّ البرابرة القاطنين عند نهر باد، وانتصروا عليهم (إلاّ أن البذخ سرعان ما أودى بهم إلى الهزيمة والطرد)، عندئذٍ شنّ الآخرون حملة ضدّ أولئك الذين طردوهم. وبعد ذلك تنازعوا فيما بينهم على امتلاك هذه الأنحاء، فجعلوا كثيراً من القرى قرى تيرينسية، وجعلوا الأخرى قرى أومبريكية، لكنّ أكثر القرى باتت أومبريكية، لأنّ الأومبريكيين كانوا أقرب إلى المكان. أمّا الرومان فقد استولوا على هذه القرى وأرسلوا مستعمريهم إلى أماكن كثيرة، لكنّهم أبقوا على أحفاد المستوطنين الأوائل. ومع أن كلّهم الآن روماني، إلا أن بعضهم لا يزال يدعى أومبريا وتيرينسياً، وكذلك جينيتياً، وليغوريا، وإينسوبرياً.

11- إن المدن المهمّة القائمة على هذا الجانب من باد وحوله، هي أولاً، بلاسينسيا وكريمونا الواقعتان بعضهما قرب بعض في وسط البلاد تقريباً؛ وتقع بينهما وبين أريمين مدن بارما، وموتينا، وبونونيا (تقع هذه الأخيرة قرب رافينا)؛ ثمّ تقع بينها مدن صغيرة تمرّ فيها الطريق إلى روما وهي: أنكارا، وريغوم ليبيدوم، وماركي كامبي، حيث تقام الاحتفالات الشعبية السنوية، وكلاتيرنا، وفوروم كورنيليوم، وفاوينتسيا، وكيسينا عند نهري سابيس وروبيكون، على الحدود مع أريمين. وتعدّ هذه الأخيرة مستعمرة للأومبريين، وكذلك رافينا، مع أن المدينتين استقبلتا مستعمرين رومان. وفي أريمين ميناء ونهر يحمل اسمها نفسه. والمسافة من بلاسينسيا إلى أريمين 1300 مرحلة. وفوق أريمين على بعد 36 ميلاً باتجاه منطقة كوتيوس تقع مدينة تيكين

بنهرها الذي يجري على مقربة ويحمل اسمها نفسه ويصبّ في نهر باد. وتأتي بعد ذلك كلاستيديوس، وديرتون، وأكوي ستاتيللي، بعيدة بعض الشيء عن الطريق. فالطريق المباشرة على امتداد نهر باد ونهر دوريوس إلى أوكيل يمتدّ الجزء الأكبر منها عبر هاوية (لأنها تقطع إضافة إلى هذين النهرين أنهاراً أخرى كثيرة؛ ومنها نهر دروينسيا)[34] مسافة تقارب 160 ميلاً[35]. ومن أوكيل تبدأ جبال الألب وسلتيا. وعند هذه الجبال التي تعلو فوق لونا، تقع مدينة لوكا؛ ويعيش فريق من السكّان هنا في القرى. غير أن في هذه البلاد كثافة سكّانية عالية، فالعدد الأكبر من القوّات الرومانية يجنّد من هنا، والكتلة الرئيسة من الفرسان أيضاً، ومنها يكمل السينات قوامه[36]. وديرتون مدينة مهمّة واقعة في وسط الطريق من جنوا إلى بلاسينسيا، على مسافة 400 مرحلة عن كلّ منهما. وتقع على هذه الطريق أيضاً، أكوي ستاتيللي. وأنا كنت قد تحدّثت عن المسافة من بلاسينسيا إلى أريمين. فالرحلة نزولاً مع مجرى نهر باد إلى رافينا، تستغرق يومين. وتغطي المستنقعات جزءاً مهماً من أراضي هذا الجانب من نهر باد. وقد لاقى هنيبعل صعوبات كبيرة أثناء اجتيازه هذه المستنقعات ليصل إلى تيرينيا. ولكنّ سكافروس[37] جفف الآن هذه السهول، إذ شقّ قنوات صالحة للملاحة من نهر باد إلى بارما. فتريبيا الذي يصبّ في باد عند بلاسينسيا وقبله أيضاً عدد آخر من الأنهار تملأ كلّها مجرى النهر إلى أعلى من المعدّل. وكان هذا السكافروس هو نفسه الذي أمر ببناء طريق إيميليوس عبر بيس ولونا حتّى سابات، ومن هناك عبر ديرتون. وهناك طريق أخرى تدعى طريق إيميليوس، وهي ملحق طريق فلامينوس. فمارك ليبيدس وغايوس فلامينوس كانا شريكين في القنصلية[38]. وبعد إخضاع الليغوريين، بنى الأخير طريق فلامينوس[39]، من روما عبر تيرينيا وأومبريكا وصولاً إلى منطقة أريمين؛ ثمّ أكملها الأوّل حتّى بونونيا، ومن هناك إلى أكويليا على امتداد سفوح الألب ملتفّة حول المستنقعات. وكانت حدود هذه البلاد التي ندعوها سلتيا التي على هذا الجانب من الألب، كانت حدودها مع باقي إيطاليا تتمثل في جبال الأبينين التي فوق تيرينيا، وفي نهر إيسيس، ثمّ فيما بعد نهر روبيكون، والنهران يصبّان في البحر الأدرياتيكي.

12- والدليل على تمييز هذه المناطق، هو كثرة أعداد سكّانها، وكبر أحجام مدنها وثراؤها؛ فالرومان الذين يعيشون في هذه البلاد، يتفوّقون في هذه الميادين على باقي إيطاليا. إن الأراضي المزروعة هنا تعطي كميات كبيرة من شتّى أنواع الثمار، والغابات غنية بثمار البلوط إلى درجة أن أكثر سكّان روما يأكلون لحم قطعان

الخنزير الآتية من هنا. والبلاد غنية أيضاً بالدّخن، لأنّ التربة تتلقّى كفايتها من الرطوبة. وللدخن دور فاعل جدّاً لدى حدوث مجاعة. فهو يصمد في وجه كلّ أشكال الأحوال المناخية السيّئة ويعطي محصوله دائماً، حتّى لو شحّت المحاصيل الأخرى كلّها. وتوجد في هذه البلاد غلاّيات قار مهولة وغير عادية. وتشهد الدنان على وفرة النبيذ، فثمّة دنان خشبية يفوق حجمها حجم المنازل. وتساعد وفرة القطران على طلي الدنان الخشبية بدقّة كاملة. وتنتج منطقة موتينا والناحية التي عند نهر سكولتانا شتّى أنواع الأصواف الدقيقة البديعة؛ أمّا ليغوريا ومنطقة السيمبريين، فتعطيان أصوافاً فظّة خشنة يرتديها أكثر أفراد خدم منازل الإيطاليوتيين؛ وأخيراً فإن النوع الوسط من الأصواف يصنّع في منطقة باتافيوس، ومن هنا يخرج أغلى أنواع السجاد، والأغطية، وما شابه من شتّى أصناف المنسوجات المغطاة بالصوف إمّا من جهتيها، أو من جهة واحدة. أمّا المناجم فهي لا تستغل الآن هنا الاستغلال الأمثل، كما كانت عليه الحال سابقاً، وربّما كان سبب ذلك هو إن مناجم منطقة السلتيين وراء الألب، وفي إيبيريا أكثر جدوى[40]. بيد أنها كانت تستغل فيما مضى استغلالاً متقناً، لأنه كان في فيركيلا منجم ذهب. وفيركيلا هي قرية قرب إيكتومولا (وهذه بدورها قرية)؛ وتقع القريتان عند بلاسينسيا. وهذا هو وصفي حتّى الآن، لأول جزء من إيطاليا.

الفصل الثاني

1- نحن نسمّي الجزء الثاني ليغوريا، التي تقع في قلب جبال الأبينين بين سلتيا التي وصفناها للتوّ، وتيرينيا. وليس في هذا الجزء ما يستحقّ أن نصفه، ما عدا كون سكّانه يعيشون في قرى، ويحرثون ويحفرون تربة صخرية، أي أنهم كما يقول بوسيدنيدوس، يكسّرون الحجارة أكثر من كونهم يحرثون التربة. أمّا الجزء الثالث فتشكّله بلاد التيرينيين المجاورة للجزء الثاني، ويشغل هؤلاء السهول الممتدّة حتّى نهر التيبر. ومن الشرق يحدّ هذا النهر حتّى مصبّه، الجزء الأكبر من هذه البلاد، ويحدّها من الجهة الأخرى البحر التيريني وبحر سردينيا. ويجري التيبر من جبال الأبينين عابّاً في مجراه مياه كثير من الروافد. فهو في بعض مجراه يعبر تيرينيا، ثمّ يفصل أومبريكا عن تيرينيا، وبعد ذلك يفصل عنها منطقة السابين ولا سيوم عند روما ليصل أخيراً إلى الشاطئ. وتتوضّع هذه المناطق عرضاً بموازاة النهر وتيرينيا تقريباً، أمّا طولاً فهي بموازاة بعضها بعض. وهي تمتدّ حتّى ذيول الأبينين قرب البحر الأدرياتيكي: في الأول أومبريا، تليها بلاد السابين، ثمّ منطقة اللاتين كلّها، وهي تبدأ من النهر. وعلى هذا النحو فإن بلاد اللاتين تقع بين الساحل من أوستيا حتّى مدينة سيبويسا ومنطقة السابين (أوستيا

هي ميناء روما حيث يصبّ التيبر الذي يجري على مقربة من المدينة، في البحر)، وهي تمتدّ طولاً حتّى كامبانيا والجبال السامنتية. وتقع منطقة السابين بين بلاد اللاتين وأومبريكا، وتصل حتّى الجبال السامنتية، أو على الأكثر أنها تلامس الأبينين في منطقة الفيستينيين، والبيليغنيين، والمارسيين. وأخيراً يقطن الأومبريكيون بين منطقة السابين وتيرينيا، وتمتدّ بلادهم عبر الجبال حتّى أريمين ورافينا. أمّا تيرينيا فإنها تبدأ من بحرها[1] والتيبر لتنتهي مباشرة عند سفوح الجبال التي تحيط بها على طول المدى من ليغوريا حتّى البحر الأدرياتيكي. وسأبدأ وصفي الدقيق من تيرينيا.

2- يدعو الرومان التيرينيين إيتروسكيين وتوسكيين. ويروي الإغريق أنهم دعوهم بهذا الاسم نسبة إلى تيرين ابن أتيس الذي أرسل إلى هنا مستعمرين من ليديا. واتيس هو أحد أحفاد هرقل وأمفالي، عندما حلّت المجاعة في أرضه وشحّ المحصول، أجرى قرعة بين ولديه، ونتيجة للقرعة بقي ابنه ليد عنده، وأرسل الآخر، تيرين مع العدد الأكبر من ناسه إلى وراء البحر. ولمّا وصل هذا إلى هذه البلاد، دعاها باسمه، تيرينيا، وأسّس فيها 12 مدينة، وعيّن عليها «مدبّراً» اسمه تاركون (سميث مدينة تاركويني باسمه)[2]. وكان هذا يتميّز منذ طفولته بعقل راجح، ولذلك، كما تروي الأسطورة، ولد أشيب الشعر. ولمّا كان التيرينيون تحت سلطة حاكم واحد، كانوا يمتلكون قوّة جبّارة، لكنّ اتّحادهم هذا تداعى فيما بعد، وتفرّقوا تحت ضغط جيرانهم إلى مدن مستقلّة. وهذه حقيقة، وإلاّ لما كانوا تركوا أرضهم الخصبة والتفتوا لممارسة القرصنة البحرية، وليرسلوا عصابة من القراصنة إلى هذا البحر وعصابة أخرى إلى ذاك. والحقيقة أنهم حيثما نجحوا في توحيد كلمتهم، استطاعوا أن يصدوا عدوان خصومهم، بل شنّوا بدورهم حملات بعيدة. وبعد تأسيس روما، وصل إلى تيرينيا من كورينثوس، ديمارات[3] ومعه عدد كبير من الناس. فاستقبله سكّان تاركويني، وتزوج بامرأة محلّية وأنجب منها ابنه لوكومون. وإذ غدا هذا صديقاً لملك الرومان أنكوس مارسيون، اعتلى عرش روما بعده باسم لوسيوس تاركويني بريسكوس[4]. فزين تيرينيا (وهذا ما فعله والده قبله): استعان الأب بكثرة من الحرفيين الذين جاؤوا معه من وطنه الأمّ، أمّا الابن فقد استخدم الوسائل التي حصل عليها من روما. ويزعمون أن حليّ احتفالات النصر، وحليّ رتبة القنصلية، بل حليّ أصحاب المناصب على وجه العموم، انتقلت إلى روما من تاركويني، مثلها مثل شارة الفاسيس، والفؤوس، والأنابيب، والطقوس المقدّسة، وفنّ التنجيم، والموسيقا، فالرومان يستخدمون هذه الأخيرة في شؤون الدولة اليومية. وكان ابن هذا التاركويني الثاني، تاركويني

المتغطرس آخر ملوك روما، وقد طرد منها[5]. فحاول بورسينا ملك كلوسي، وهي مدينة تيرينية، أن يعيده إلى العرش بقوة السلاح، لكنّه فشل في ذلك، فأوقف تحركاته العدائية، وتحوّل إلى صديق للرومان، ذي حظوة وهدايا ثمينة.

3- لقد قلت هذا عن شهرة التيرينيين. وينبغي أن نذكر أيضاً مآثر سكّان مدينة كيريه؛ فالكيريتانيون هزموا الغلاطيين الذين استولوا على روما[6]؛ إذ هاجموهم في طريق عودتهم في بلاد السابين، وسلبوهم عنوة كلّ ما كان الرومان قد أعطوه لهم طواعية. وعلاوة على ذلك قدّموا الملجأ لكلّ الذين فرّوا إليهم من روما، وأنقذوا النار المقدّسة مع كاهنات فستا. ولكنّ حكّام روما آنئذٍ كانوا ناكرين للجميل الذي كان أسداه الكيريتانيون لروما. والحقيقة أنهم منحوا هؤلاء حقوق المواطنية الرومانية، لكنّهم لم يدخلوهم عداد المواطنين الرومان، بل طردوا كلّ الآخرين الذين لم تكن لهم «الإيسونوميا»[7]، وسجّلوهم في «لائحة الكيريتانيين»[8] وقد اشتهرت هذه المدينة عند الإغريق بشجاعة سكّانها وعدلهم. فقد امتنع هؤلاء فعلاً عن ممارسة أعمال القرصنة، مع أن مدينتهم كانت مدينة جبّارة، وأهدوا في بيفو[9] ما يسمّى «كنز الأغيليين»[10]. لأنّ مدينة كيرية كانت تدعى سابقاً أغيلا، ويقال إن مؤسّسيها هم البيلاسيغيس الذين جاؤوا إلى هنا من تساليا. وحينما شنّ أولئك الليديون الذين بدّلوا اسمهم وباتوا يدعون تيرينيين، حملة على الأغيليين، وصل واحد منهم إلى سور المدينة وسأل عن اسمها، وبدلاً من الإجابة، بادره أحد التساليين الواقفين على السور محيياً: «كيريه»[11]. فرأى التيرينيون في هذا فألاً حسناً وبدّلوا اسم المدينة لتدعى بعد ذلك كيريه. ولكنّ هذه المدينة التي كانت في يوم ما لامعة مزدهرة شهيرة، لم يبق لها الآن سوى ظل باهت لمجد مضى؛ فالينابيع الساخنة المجاورة التي تدعى كيريتانية[12] عدد سكّانها اليوم أكثر من عدد سكّان المدينة، لأنّ كثيراً من الناس يقصدونها طلباً للعلاج[13].

4- أمّا فيما يخصّ البيلاسيغيس، فهناك شبه إجماع على أن قبيلة قديمة ما حملت هذا الاسم، كانت تنتشر في مختلف أنحاء اليونان، خاصة بين الإيوليين في تساليا. فإيثور يرى (وفق ما يقوله هو نفسه) أن هؤلاء الذين كانوا في الأول أركاديين، اختاروا طريقة عيش المقاتلين، وإذ دفعوا كثيراً من الآخرين إلى نمط العيش هذا، منحوهم اسمهم أيضاً، واشتهروا شهرة واسعة بين الإغريق والشعوب الأخرى التي تأتّى لهم التواصل معها. وقد استوطنوا كريت، كما يقول هوميروس. وعلى أي حال فإن أوديسيوس يقول لبنيلوبي:

تسمع لغات مختلفة هناك: تجدين الآخيين،

وأول الأجناس القبلية للكريتيين المقاتلين؛ والكينوديون

يقطنون هناك[14]، والدوريون الأجاعد، وقبيلة البيلاسيغيس.

(الأوذيسا XIX، 175)

وتساليا أيضاً (بين مصبّ بينوس وثرموبل حتّى البلاد الجبلية في بيندوس) تدعى آرغوس البيلاسغية، لأنّ البيلاسيغيس امتلكوا هذه البلاد يوماً ما. كما يدعى زيوس الدودوني أيضاً بيلاسيغيّاً:

زيوس البيلاسيغي، ربّ، دودوني

(الإلياذا XVI، 233)

ودعا كثيرون القبائل الإيبيرية بالقبائل البيلاسيغية، إذ ظنّوا أن البيلاسيغيس بسطوا سلطانهم حتّى على هذه الأنحاء. وبما أن كثيراً من الأبطال حملوا اسم بيلاسيغيين، لذلك عمد كثيرون إلى إطلاق أسماء هؤلاء الأبطال على كثير من الأقوام. فدعوا على سبيل المثال، ليسبوس بالبيلاسيغية، ودعا هوميروس جيران الكيليكيين في طروادا بالبيلاسيغيس:

لقد قاد هيبوثوي قبائل البيلاسيغيس الرمّاحة،

أولئك الذين يعيشون في حقول لاريسا البورغية الخصيبة.

(الإلياذا II، 840)

ولكنّ خبر منبت هذه القبيلة في أركاديا، أخذه إيثور عن هسيود. فهسيود يقول:

وأبناء أنجب ليكاون نظير الإله،

أما هو فقد أنجبه بيلاسيغيس في زمن ما...

(مصدر غير معروف)

وإضافة إلى ذلك، فإن إيسخيليوس في «المتوسّلات»[15] أو «الدانائيدس»[16]، يخرج منشؤهنّ من آرغوس، الواقعة قرب ميسينا. وحسب خبرية إيثور أن البيلوبونيز كانت تدعى بيلاسغيا[17]. وفي «أرخيلايوس»[18] يقول يوريبيدس بدوره:

إن دانائي، والد البنات الستين،

إذ وصل إلى آرغوس، أسّس مدينة إيناخا،

وكل من كان يحمل اسم بيلاسيغيس من قبل،

أوعز إليهم بأن يتخذوا في هلاّدا لقب دانائيين.

(مقطع، 228، ناوك)

ثمّ يروي أنتيكليدس أن البيلاسيغين أوّل من سكنوا منطقة ليمنوس وإيمبروس، وفعلاً فإن فريقاً منهم بزعامة تيرين ابن أتيس، اتّجه إلى إيطاليا. ويخبر مصنّفو «تاريخ أتثيدس»[19] بدورهم عن مجيء البيلاسيغيس إلى أثينا[20] أيضاً؛ ولكن بما أن هؤلاء كانوا قبيلة رحّل تطير إلى حيث تشاء كما هي حال الطيور، فقد أطلق عليهم سكّان أتيكا اسم «بيلارغيين»[21].

5- يبلغ المدى الأقصى لطول تيرينا (ويقال، إنها شريط ساحلي، يمتدّ من لونا حتّى أوستيا) حوالي 2500 مرحلة، أمّا عرضها قرب الجبال، فهو أقلّ من نصف طولها. فمن لونا إلى بيسّا تحديداً، أكثر من 400 مرحلة؛ ومن هناك حتّى فولاتيري 280 مرحلة، ثمّ من هنا حتّى بوبلوني 270 مرحلة؛ ومن بوبلوني حتّى كوسا 800 مرحلة تقريباً، وبحسب مصادر أخرى 600 مرحلة فقط. بيد أن بوليبيوس يزعم في الأول، أن المسافة كلّها[22] لا تبلغ 1330 مرحلة. والأول بين هذه المراكز السكّانية، هو المدينة الميناء لونا. ويدعو الإغريق المدينة والميناء «ميناء سلينا». والمدينة ليست كبيرة، أمّا الميناء فهو شاسع جدّاً وجميل (لأنه يضمّ عدداً من الموانئ، مياهها كلّها عميقة حتّى عند الشاطئ)، كما يليق بميناء يشكّل قاعدة بحرية لشعب كان يسود على مثل هذا البحر الكبير لزمن طويل. تحيط الجبال العالية بالميناء، فيمكن أن تستمتع برؤية البحر من هناك، كما تظهر سردون والجزء الأكبر من جانبيّ الساحل. وتقع هنا كثرة من مقالع حجر المرمر الأبيض والملّون: أزرق- رمادي (يستخرجون هنا صفائح وأعمدة من حجر واحد) ذي النوعية العالية، فأكثر الأعمال الفنية الشهيرة[23] القائمة في روما والمدن الأخرى، نحتت من حجارة هذا المكان. ونقل الحجارة من هنا يسير، لأنّ المقالع تتوضّع فوق شاطئ البحر مباشرة، ومن البحر تصعد الشحنات في نهر التيبر ثمّ تنقل إلى روما. ويأتون من تيرينا بالكمّ الأكبر من أخشاب بناء المنازل على شكل ألواح مستقيمة وطويلة جدّاً، ومن الجبال تعوّم هذه في النهر مباشرة. فبين لونا وبيسّا يجري نهر ماكرا الذي يرى فيه كثير من المصادر حداً فاصلاً بين تيرينا وليغوريا. وقد أسّس بيسّا البيساتيون الذين كانوا يعيشون في البيلوبونيز، فشنوا على إيليون حملة قاد جموعهم فيها نسطور، لكنّهم ضلوا طريق العودة، فساقت الأقدار بعضهم إلى ميتابونتس، وبعضهم الآخر إلى منطقة بيسّا، مع أنهم دعوهم كلّهم بالبيلوسيين. وتقع بيسّا بين نهرين: نهر آرن ونهر آوسار، عند نقطة التقائهما تماماً. والنهر الأول ماؤه غزير ويجري من أريسي بثلاثة فروع ليست بمجرى واحد، أمّا النهر الثاني فهو يجري من جبال الأبينين. وبعد أن يجتمع النهران في مجرى واحد، تتلاطم أمواجهما وترتفع عالياً بحيث لو وقف شخصان على ضفتي المجرى، لما استطاع أيّ منهما أن يرى

الآخر. ولذلك كان الصعود في مياه النهر من البحر أمراً مصحوباً بصعوبات كبيرة. وتبلغ مسافة الإبحار في النهر 20 مرحلة. ويروون قصّة خرافية تقول، إنه عندما أخذ النهران ينحدران من الجبال، عمد السكّان المحلّيون إلى حجز مياههما كي لا يلتقيا فيغرقا البلاد. فوعدهم النهران بألاّ يفيضا، والتزما بوعدهما. ويبدو أن مدينة بيسا كانت في زمن ما مدينة مزدهرة ومعروفة، بفضل خصوبة أراضيها، ومقالع حجارتها، وأخشابها الصالحة لبناء السفن. وفي الأزمنة الغابرة استخدم البيساتيون هذه الأخشاب لدرء الأخطار التي كانوا يتعرّضون لها من جهة البحر (فقد كانوا محاربين أكثر من التيرينيين، وكان الليغوريون، جيرانهم الحمقى، يثيرون حميتهم القتالية دائماً)؛ أمّا الآن فإن أكثر أخشابهم ينقل إلى روما وضواحيها لأغراض البناء، حيث تبنى هنا مباني تحاكي قصور الفرس بفخامتها وبذخها.

6- وتشاطئ منطقة الفولاتيريين البحر، أمّا مدينتهم نفسها فتقع في ثغر عميق، على هضبة عالية شاقولية من جوانبها كلّها؛ وعلى القمّة المسطحة لهذه الهضبة، بنيت أسوار المدينة، ويمتدّ من قمّة الهضبة حتّى سفحها منحدر شديد صعب ارتفاعه 15 مرحلة. وإلى هنا تجمّع بعض التيرينيين والذين حكم عليهم سولاّ بالموت. وبأربعة فيالق[24]، صمدوا هنا لحصار دام عامين، ولم يتركوا المكان إلاّ بعد توقيع اتفاق. وبوبولوني بنيت بدورها فوق رأس عالية تنحدر نحو البحر انحداراً شديداً متخذة شكل شبه جزيرة. وعند ذلك الوقت عينه، صمدت بوبولوني بدورها لحصار طويل آخر. والمدينة الآن متروكة كلّها، ما عدا معابدها وبعض منازلها السكنية. ولمحطة السفن الموجودة هنا، مستوطنة أكثر أهمية من بوبولوني، ففي هذه المحطة ميناء وداران لإصلاح السفن عند سفح الجبل. وأنا أظنّ أن هذه المدينة وحدها بين كلّ المدن التيرينية القديمة، تقع على البحر مباشرة. وسبب ذلك، هو أن الساحل خال من الموانئ. ولذلك تفادى مؤسّسو المدن البحر تماماً، أو أقاموا تحصينات من جهة البحر لكي لا تقع هذه المدن فريسة (بسبب غياب التحصينات) سهلة لهجوم يأتيها من البحر. وتقع تحت الرأس نقطة لمراقبة حركة أسماك التنة. وإذا نظرت من المدينة إلى الأسفل، يمكنك أن ترى من بعيد، وإن كان بصعوبة، سردون وكيرن الأقرب التي تقع على بعد حوالي 60 مرحلة عن سردون. وأوضح من كيرن بكثير تظهر جزيرة إيثاليا الأقرب إلى اليابسة، فهي تقع على بعد 300 مرحلة عنها تقريباً، كما تبعد المسافة نفسها عن كيرن. وتعدّ هذه البلدة المكان الأكثر ملاءمة للانطلاق إلى الجزر الثلاث المذكورة. وقد رأيتها بنفسي (عندما قيض لي أن أصعد إلى بوبولوني)، كما رأيت أيضاً في تلك الضواحي عدداً من المناجم المتروكة. ورأيت العمال الذين كانوا يعدّنون الحديد المنقول من

إيثاليا، لأنّ تحويل الحديد إلى كتلة متماثلة عن طريق تلدينه في أفران الجزيرة، كان أمراً غير ممكن، لذلك كانوا ينقلونه من المناجم إلى اليابسة مباشرة. ولكنّ الجزيرة تشتهر أيضاً بأن المناجم التي كانت قد استنفذت على مر الزمن، تعود لتمتلئ بالفلزات من جديد[25]، وهذا ما يحصل كما يقولون، لطبقات الصخر في رودوس، وصخور المرمر في باروس، وطبقات الصخر التي أشار إليها كليتارخ في الهند. وعلى هذا النحو يكون إيراتوسفين قد أخطأ في زعمه أن كيرن وسردون لا تظهران للناظر من البرّ؛ كما يخطئ أرتيميدور أيضاً إذ يقول، إن الجزيرتين تقعان في عرض البحر على بعد 1200 مرحلة. وحقيقة الأمر أنه إذا كان أحدهم قد رأى فعلاً، فإنه بالنسبة لي كان تمييز الجزيرتين من هذا البعد كلّه، أمراً غير ممكن، خاصة جزيرة كيرن. وفي إيثاليا ميناء يدعى ميناء آرغوس، ويقال إنه دعي بهذا الاسم تيمّناً بالسفينة آرغو. ففي هذا الميناء رسا ياسون بينما كان يبحث عن مكان وجود كيركا، لأنّ ميديا كانت ترغب في أن ترى الإلهة. ضف إلى هذا أنه لا تزال باقية على شاطئ الجزيرة حتّى الآن الحجارة الصغيرة المبرقشة التي تشكّلت من قطرات الزيت المتجمدة التي أزالها الأرغونيون عن أجساهم. إن هذه القصص الأسطورية تبيّن صحّة زعمي بأن هوميروس لم يختلق كلّ شيء بنفسه؛ بل غالباً كان يسمع مثل هذه الروايات، فيعيد رواياتها ويزيد في روايته من المسافات، وينقل الأحداث إلى مكان أبعد. وعلى النحو الذي نقل فيه أوديسيوسه إلى المحيط، رمى بياسون إلى هناك، لأنه تأتى لهذا الأخير كذلك أن يعاني من التيه كما أوديسيوس ومنيلايوس[26]. ذلكم كان وصفي لإيثاليا.

7- يدعو الرومان كيرن باسم كورسيكا. ونمط الحياة في هذه الجزيرة نمط متخلّف، لأنّ الجزيرة صخرية والجزء الأكبر منها وعر غير سالك، فسكّان الجبال الذين يعيشون على الغزو والسلب، أكثر ضراوة من الوحوش. وعلى وجه العموم كلّما كان القادة الرومان يشنّون حملة ضدّهم، ويقتحمون تحصيناتهم، كانوا يغنمون كثيراً من الأسرى منهم، ويمكن مشاهدة هؤلاء في روما، وما يثير الاستغراب في هؤلاء العبيد، هو الحدّة التي تتجلّى فيها طبيعتهم الوحشية القطيعية. فهم لا يطيقون العيش مقيدين، وإذا ما عاشوا غير أحرار، فإنهم يثيرون غيظ سادتهم، باستهتارهم وبلادتهم وشدّة غبائهم، إلى درجة أن هؤلاء، وعلى الرغم من أنهم لم يدفعوا ثمن شرائهم سوى مبالغ ضئيلة، إلاّ أنهم يندمون على خسارتها. بيد أنه ثمّة في الجزيرة بعض الأجزاء المأهولة، وتوجد فيها هنا وهناك بعض المدن الصغيرة: بليسيون، وكاراك، وإينيكوني، ووابانيس[27]. ويرى «كوروغراف»[28] أن طول الجزيرة 160 ميلاً رومانياً، وعرضها 70 ميلاً. وطول سردينيا 220 ميلاً، وعرضها 98 ميلاً. وحسب كتّاب آخرين

أن محيط كيرن حوالي 3200 مرحلة، ومحيط سردون 4000 مرحلة تقريباً. والشطر الأكبر من سردون ذو طبيعة صخرية، وهي مكان مضطرب وغير مستقر، مع أن فيها كثيراً من الأراضي الغنية بشتّى أنواع المنتوجات، خاصة الأقماح. وليس في الجزيرة إلاّ بعض المدن، التي لا يستحق الذكر منها سوى مدينتين: كاراليس، وسولخي. ولكنّ الميزات العالية التي يتمتّع بها هذا المكان، تقابلها عيوب كبيرة، فمناخ الجزيرة مؤذٍ للصحّة صيفاً، خاصة في الأماكن الخصبة. والجدير ذكره، أن هذه الأماكن تحديداً تتعرّض لغزو سكّان الجبال دائماً، وقد أُطلق على هؤلاء اسم الدياجيسبيين؛ وكانوا يدعون من قبل إيولانيين. فحسب الرواية، أن إيولايوس جاء إلى هنا مع عدد من أبناء هرقل، وسكن مع البرابرة الذين كانوا يمتلكون الجزيرة (لقد كان هؤلاء هم التيرينيون). وفيما بعد استولى فينيقيون من قرطاجة على الجزيرة، وتحالف الطرفان لمحاربة الرومان. وبعد هزيمة الفينيقيين، خضع سكّان الجزيرة كلّهم لسلطة الرومان. ويتألف سكّان الجبال من أربع قبائل، هي الباراتيون، والسوسيناتيون، والبالايون، والأكونتيون الذين يعيشون في الكهوف. ومع أن لديهم بعض الأراضي الصالحة للزراعة، إلاّ أنهم لا يولون زراعتها عناية تذكر؛ فهم ينهبون حقول الفلاّحين، ليس فلاحي الجزيرة فقط، إنّما حقول فلاّحي البرّ أيضاً، خاصة الفلاّحين البيساتيين الذين يغزونهم بحراً. وأحياناً يقاوم القضاة الرومان الذين ترسلهم روما إلى الجزيرة، هجمات سكّان الجبال، لكنّهم يعزفون عن مقاومتهم أحياناً أخرى، عندما لا يكون ثمّة جدوى من الاحتفاظ بالقوات في مكان غير صحّي. لكنّهم يلجؤون عندئذٍ إلى بعض الحيل العسكرية. فيرصدون عادة البرابرة المعروفة، إذ يحتفل هؤلاء على مدة عدة أيام بغنيمتهم الحربية، وبينما هؤلاء يحتفلون يهاجمهم الرومان ويغنمون أعداداً كبيرة من الأسرى. وتسرح في سردون خراف يكسو جسمها شعر الماعز بدلاً من الصوف، وتدعى هذه «موسموني»[29]؛ ويصنع السكّان من جلودها دروعاً. ويستخدم هناك ترس جلدي خفيف، وخنجر.

8- ومن على امتداد الشاطئ كلّه بين بوبلوني وبيسا، تظهر الجزر بوضوح كاف. فالجزر الثلاث متطاولة الشكل، وتقع على موازاة بعضها بعض باتجاه الجنوب وليبيا. لكنّ إيثاليا أصغر بكثير من جارتيها الأخريين. وأقصر معبر من ليبيا إلى سردون، امتداده بحسب كوروغراف، 300 ميل[30]. وتأتي بعد بوبلوني مدينة كوسّا التي لا ترتفع عن البحر إلاّ قليلاً. ويقوم في عمق الخليج تلّ عال تقوم فوقه مستوطنة. ويقع عند سفح التلّ ميناء هرقل؛ وعلى مقربة منه خور، وقرب الرأس مباشرة، فوق الخليج، تقع نقطة مراقبة حركة أسماك التنّة. فهذه الأخيرة لا تتبع الشاطئ بحثاً عن

ثمار البلوط[31] البحرية فقط، بل بحثاً عن الأعشاب المائية[32] أيضاً، وتبدأ طريقها من البحر الخارجي وصولاً إلى صقليا. وإذا أبحرت من كوسّا إلى أوستيا، فثمّة على الطريق مدن صغيرة: غراويسكي، وبيرغي، وألسي، وفريجينا. والمسافة إلى غراويسكي 300 مرحلة، وهنا في منتصف الطريق، يوجد مكان يدعى ريغيس فيلاّ. ويروى أن هذا كان في زمن ما قصر بيلاسغيس ماليوس الذي يقال، إنه كان يمتلك هذا المكان، لكنّه تركه ومضى إلى أثينا مع البيلاسيغيس الذين كانوا يعيشون هنا. وينتمي إلى هذه القبيلة أيضاً، البيلاسيغيس الذين يمتلكون أغيلا[33] اليوم. والمسافة من غراويسكي إلى بيرغي أقل من 180 مرحلة بقليل. وتقع محطة سفن الكريتانيين على بعد 30 مرحلة عن المدينة. ويقوم في بيرغي معبد إيليثيا الذي بناه البيلاسيغيس، وكان معبداً غنياً ذات يوم. ولكنّ ديونيسيوس طاغية السيراكوزيين، نهبه أثناء حملته على كيرن. ومن بيرغي إلى أوستيا 260 مرحلة. وتقع بين هاتين المدينتين ألسي وفريجينا. إن هذا هو وصفي للساحل التيريني.

9- وإضافة إلى المدن المذكورة تقع في وسط البلاد مدن أريسي، وبيروسيا، وفولسيني، وسوتري. وما عدا هذه الأخيرة هناك أيضاً كثير من المدن الصغيرة: بليرا، وفيرينتين، وفاليري، وفاليسك، ونيبيتا، وستانونيا، وسواها. ومنذ البداية ألّف بعضها اتحاداً، أمّا الأخرى فقد استعمرها الرومان أو أخضعوها، كما هي حال فيي التي حاربتهم مراراً، وكذلك فيدينا. ولكنّ بعضهم لا يسمي الفاليريين تيرينيين، بل فاليسكيين، قبيلة مستقلّة. بينما يرى آخرون في فاليسك مدينة لها لغتها الخاصة. ويرى فريق ثالث أن فاليسك هي نفسها مدينة إيكفوم فاليسكوم الواقعة على طريق فلامينوس بين أوكريكلا وروما[34]. وعند سفوح جبل سوراكتي تقع مدينة فيرونيا سميّة واحدة من الإلهات المحلّيات التي كانت مبجّلة جداً عند سكّان الضواحي. وعلى الأرض المقدّسة المكرّسة لها هنا، يؤدّون طقوساً دينية شديدة الغرابة. فالمسكونون بهذه الإلهة يسيرون حفاة على الجمر والرماد المتوهّجين[35] من غير أن يشعروا بأيّ ألم. وتجتمع هنا أعداد كثيرة من الناس للاحتفال سنوياً بعيد الإلهة، ومشاهدة العرض المذكور. وفي أعماق الجبال، أبعد من المدن الأخرى كلّها، تقع مدينة أريسي. فهي تبعد 1200 مرحلة عن روما، بينما تبعد كلوسي عنها 800 مرحلة. وعلى مقربة من هاتين المدينتين تقع مدينة بيروسيا. وتساهم في ازدهار هذه البلاد كثرة من البحيرات الكبيرة، لأنها بحيرات صالحة للملاحة، وتوفّر القوت لكمّ مهول من الأسماك وأعداد كثيرة من أسراب طيور المستنقعات. كما يرد إلى روما نزولاً مع مجاري الأنهار التي تنبع من هذه البحيرات وتصل حتّى نهر التيبر، القصب، والكولان وكميات كبيرة من

السمار[36]. ومن هـذه الـبحيرات الـبحيرة الكيمينيـة، والـبحيرة الواقعـة قـرب فولسيني، وأخـرى علـى مقربـة مـن كولوسـي، وبحـيرة سـابات الأقـرب إلى رومـا والبحـر. وأبعـد البحيرات هـي البحيرة الواقعة قرب أريسـي، وتـدعى بحـيرة تراسـومينا؛ وتقـع علـى مقربـة منها ممرّات تعبر منها القـوات مـن سـلتيا[37] إلى تيرينيـا، وهـذه الممـرّات هـي الـتي عبرهـا هنيبعل[38]. وعدد هـذه الممرّات اثنان: هذا الممرّ، وذاك الذي عند أريمين عبر أومبريكـا. والحقيقـة أن المعبر الـذي عنـده هـو الأكـثر ملاءمـة، لأنّ الجبـال تـنخفض هنـا بشـكل ملحوظ. وبما أن حراسة هذه الممرّات كانت دقيقة، فقد وجد هنيبعل نفسه مضطراً إلى سلوك المعبر الأصعب، ومع ذلك فقد استولى عليه بعد أن هـزم فلامينـوس في أكـثر مـن معركـة كبيرة. وتيرينيا بلاد غنية بالينابيع الحارّة، ولأن هذه تقع على مقربـة مـن رومـا، فإن عدد سكّان هذه الأماكن ليس أقل من عـدد سـكّان منطقـة ينـابيع بـايي الـتي تعـدّ المنطقة الأكثر شهرة بين مثيلاتها[39].

10- وإلى جوار تيرينيـا مـن جهـة الشـرق تقـع أومبريكـا. وهـي تمتـدّ مـن الأبيـنين حتّـى البحـر الأدرياتيكـي. فـالأومبريكيون يشـغلون المنطقـة المجـاورة مباشـرة ابتـداء مـن رافينـا، كمـا يشـغلون المنـاطق الـتي تلـي أيضـاً: سارسـينا، وأريمـين، وسـينا، وكامارين[40]. ويوجد هناك أيضاً نهر إيسيس، وجبـل كينغـول، ومدينـة سـينتين، ونهـر ميتاور، ومعبد فورتونا[41]. فالمسألة هي أن حدود إيطاليا السابقة مع سلتيا، كانـت تمـرّ في هذا المكـان، أي أن جـزءاً منهـا عنـد البحـر الأدرياتيكـي، مـع أن الحكّـام غيّروهـا مراراً. ففي أوّل الأمر عدّوا إيسيس حداً، ثمّ روبيكـون مـرّة أخـرى. ويجـري نهـر إيسـيس بين أنكوناوسينا، أمّا روبيكـون فيجري بين أريمـين ورافينـا، ويصـبّ النهـران في البحـر الأدرياتيكـي. ولكـن الـبلاد كلّهـا حتّـى جبـال الألـب أعلنـت الآن إيطاليـا، لـذلك ينبغـي التراجع عن هذه الحـدود. ومـع ذلـك فـإن جميعهم يوافـق علـى أن أومبريكـا نفسـها تمتـدّ حتّى رافينا، لأنّ هؤلاء القوم يعيشون في رافينا. ويقولون إن المسافة من رافينا إلى أريمـين 300 مرحلة، أمّا إذا سافرت من أريمين إلى روما على طريق فلامينوس، عبر أومبريكـا، فـإن الطريـق كلّهـا حتّـى أوكـريكلا 1350 مرحلـة. وهـذا هـو طـول أومبريكـا، أمّـا عرضها فهو غير متماثل. وتستحق الذكر المدن الآتية الواقعة على هذا الجانب من جبال الأبيـنين. أولاً، علـى طريـق فلامينـو س نفسـها مدينـة أوكـريكلا علـى نهـر التيـبر، ولارولون، ونارنا الـتي يجـري عبرهـا نهـر نـار الـذي يصـبّ في التيـبر إلى الأعلـى قلـيلاً مـن مدينة أوكريكلا، والنهر غير صـالح للملاحـة إلاّ للسـفن الصـغيرة. ثـمّ تـأتي كارسـولا وميفانيا التي يجري نهر تينييوس على مقربة منها. وعبر هذا النهر ينقلون سلع السهل إلى نهر التيبر في سفن صغيرة. وتوجد هنا أماكن أخرى تجمّع السكّان فيها غالباً لأنها تقع

على الطريق مباشرة، وليس بداعي الاتحاد المدني. وهذه الأماكن هي فوروم فلامينيوم، ونوكيريا حيث يصنعون الأباريق الخشبية؛ وفوروم سيمبرونيوم. وإذا ما سافرت من أوكريكلا إلى أريمين، فسوف تكون إينتيرامنا، وسبوليسي، وإيسي، وكاميرت على يمين الطريق، مباشرة في الجبال التي تشكّل حدود منطقة بيكينتين. أمّا على الجانب الآخر فتقع أميريا، وتودير المدينة المحصنة تحصيناً قوياً، تليها إيغوفي؛ وهذه الأخيرة تقوم على مقربة من الممرّ الجبلي. وتتميّز بلاد الأومبريكيين كلّها بالخصوبة، مع أنها بلاد جبلية بعض الشيء وتطعم سكّانها حنطة رومية أكثر من القمح. وبلاد السابين بلاد جبلية أيضاً، وهي تجاور هذه المنطقة. وتقع على امتداد أومبريكا على النحو عينه الذي تقع فيه أومبريكا على امتداد تيرينيا. وكل أجزاء بلاد اللاتين القريبة من أجزاء أومبريكا وتيرينيا هذه، وكذلك جبال الأبينين، كلّها مناطق مناخها قاس بعض الشيء. وتعيش القبيلتان بين التيبر وتيرينيا حتّى جبال الأبينين التي تحيد قليلاً في عمق البلاد عند البحر الأدرياتيكي. أمّا أومبريكا فإنها تمتدّ، كما أسلفت[42]، إلى ما وراء الجبل حتّى البحر الأدرياتيكي. وها أنا قد قلت عن الأومبريين ما يكفي.

الفصل الثالث

1- يقطن السابين المنطقة الضيّقة التي تمتدّ طولاً 1000 مرحلة من التيبر ومدينة نومينت الصغيرة، حتّى منطقة الفيستينيين. وليس عندهم كثير من المدن، بل حتّى الموجودة منها أقوت بسبب الحروب المتواصلة. وهذه المدن هي أميتيرن ورياتي التي تقع على مقربة منها بلدة إينتيروكريا والينابيع الباردة في كوتيلي التي يشربون من مائها، ويغتسلون به ليتداووا من الأمراض. وللسابين أيضاً مدينة فورولا، وهي صخرة مهيأة بطبيعتها للعصيان لا للحياة السلمية. ومدينة كوريس التي ليست الآن سوى قرية صغيرة، بينما كانت في زمن ما مدينة لها شأن، فهي مسقط رأس إمبراطوري روما تيتوس تاسيوس، ونوموس بومبيلوس. وعندما كان خطباء روما الشعبيون يخاطبون الرومان، كانوا يدعونهم كويريتيس[1]، نسبة إلى مدينة كوريس هذه. أمّا تريبولا، وإيريت، وسواهما من الأماكن الأخرى، فهي قرى أكثر منها مدن. وتنتشر في البلاد السابينية كلّها زراعة الزيتون والكرمة على وجه الخصوص، كما يجمعون كميات كبيرة من ثمار البلّوط. والبلاد صالحة لتربية شتّى أنواع الحيوانات المنزلية، وهي تشتهر خاصة بواحد من أكثر أنواع البغال الداجنة إثارة للتعجّب. وعلى وجه العموم فإن إيطاليا أفضل مطعمة لصغار مختلف الحيوانات المنزلية، والثمار [ثمار الأرض]، ولكنّ أنواعاً مختلفة منها تتميّز في مناطق مختلفة. ويعد السابين أقدم قوم في هذه البلاد، وهم

سكّانها الأصليون. والبيكينتيتيون والسامنيتيون هم مستعمرو السابين، واللوكانيون مستعمرو السامنيتيين، أمّا البريتيون فهم مستعمرو اللوكانيين. ويمكن أن يكون المظهر القديم للسابين دليلاً على بسالتهم وسواها من الميزات الأخرى المشابهة، فبفضله هم باقون حتّى اليوم[2]. ويقول المؤرّخ فابيوس: لم يدرك الرومان إلى أي حدّ هم أضحوا أغنياء إلاّ بعد أن امتلكوا هذه القبيلة. وعبر بلادهم تمرّ طريق سالاري، والحقيقة أن هذه الطريق ليست طريقاً طويلة؛ لكنّ الطريق النومنتانية تتّصل بها عند إيريت[3]، وهي قرية تابعة للبلاد السابينية، وتقع وراء التيبر؛ وتبدأ هذه الطريق خلف البوابات الكاللينية تماماً.

2- ثمّ تأتي بعد ذلك لاسيوم حيث تقع مدينة الرومان، وتضمّ لاسيوم اليوم كثيراً من المدن التي لم تكن تعدّ فيما مضى من مدن المنطقة اللاتينية. والحقيقة أن الإيكيين[4]، والفولسكيين، والجيرنيكيين، والسكّان الأصليين الذين كانوا يعيشون حول روما نفسها، والروتوليين الذين كانوا يملكون أردييا القديمة، وكذلك باقي الاتحادات القبلية الكبيرة والصغيرة، كانوا يحيطون بالرومان من كلّ صوب عندما وضعت اللبنات الأولى لبناء المدينة. وكان ثمّة بين هذه الاتحادات من كان يتمتّع باستقلاله، وقد عاش هؤلاء في قرى مستقلّة لا يتبعون أي قبيلة مشتركة. وحسب الرواية أن إينياس ومعه والده أنخيس وابنه أسكانيوس، نزلوا في لافرينتيوم التي كانت تقع على مقربة من أوستيا وضفّة التيبر، وأسّس مدينة في موقع إلى الأعلى من البحر قليلاً، وعلى مسافة تقارب 24 مرحلة عنه. فجاء إليه لاتينوس ملك السكّان الأصليين (الذين كانوا يقطنون المكان الذي تقوم فيه روما الآن)، وعقد معه ومع الذين يرافقونه، تحالفاً ضدّ الروتوليين الذين يعيشون في الجوار ويملكون أردييا (المسافة بين أردييا وروما 160 مرحلة). وبعد أن انتصر لاتينوس على الأعداء أسّس مدينة على مقربة ودعاها باسم ابنته لافينيا. وعندما بدأ الروتوليون الحرب من جديد، سقط لاتينوس في ساحة القتال، أمّا إينياس فقد انتصر، وإذ غدا ملكاً دعا رعاياه باللاتين. وبعد وفاة إينياس ووالده، بنى اسكانيوس مدينة ألبا فوق الهضبة الالبانية (على المسافة نفسها من روما وأردييا). وهنا اجتمع كبار اللاتين والرومان وقدموا ذبيحة لزيوس. ثمّ عيّنوا حاكماً على روما مدّة الذبيحة، وقد اختير هذا شاباً من شباب الأرستقراطيا. وبعد 400 عام يروون قصصاً أسطورية بعض الشيء وحقيقية بعضه الآخر، عن أموليوس[5] وشقيقه نوميتور. فقد ورث الشقيقان عن خلفاء أسكانيوس السلطة على ألبا التي تمتدّ حدودها حتّى التيبر. لكنّ الأخ الأصغر أموليوس أزاح أخاه وبات يحكم

بمفرده. وكان نوميتور قد أنجب ولداً وبنتاً. فغدر أموليوس بابن أخيه وقتله بينما كانا يصطادان، ثمّ جعل من ابنة أخيه كاهنة لفستا، كي تكون مرغمة على أن تحافظ على عذريتها وتحرم بالتالي من الإنجاب. وكانت هذه تدعى رييا سيلفيا. لكنّ الملك اكتشف بعد حين أن الفتاة فقدت عذريتها، لأنها أنجبت توأمين، وإرضاء لأخيه لم يأمر بقتلها، بل بسجنها، أمّا التوأمان فقد رمي بهما حسب التقليد الأبوي، على ضفّة نهر التيبر. وتزعم الأسطورة أن التوأمين ولدا من أريس، وأن الناس رأوا كيف كانت الذئبة ترضعهما على ضفّة التيبر. وقيل إن المدعو فاوستول، وهو أحد رعاة الخنازير في الضواحي، أخذهما إليه ليربّيهما (ينبغي أن نعتقد بأن هذا كان رجلاً من الوجهاء، أحد التابعين لسلطة أموليوس)؛ وقد أطلق هذا على أحد التوأمين اسم رومولوس، وعلى الآخر اسم روموس[6]. ولمّا كبر هذان واشتدّ عودهما، هاجما أموليوس وأبناءه. وبعد أن هلك هؤلاء الأخيرون، انتقلت السلطة إلى نوميتور، وعاد الأخوان التوأمان إلى الديار وأسّسا روما في المكان الذي لم يحدّده الخيار بقدر ما حدّدته الضرورة[7]. والحقيقة أن هذا المكان لم يكن بطبيعته محصناً تحصيناً جيداً، ولم يكن في ضواحيه من الأراضي الزراعية بالقدر الذي تحتاجه المدينة، بل وكان هناك نقص بالسكّان الذين كان يمكن أن تستوعبهم المدينة. فالناس الذين كانوا يقيمون هناك لم يخالطوا الآخرين (مع أن حدود أراضيهم كانت تلامس أسوار المدينة تقريباً)، ولم يولوا انتباهاً خاصاً للألبانيين* وقد كان هؤلاء هم سكّان كولاسيا، وأنتيمينا، وفيدينا، ولابيك، وسواها من مدن [الألبانيين] التي كانت عندئذٍ مدناً صغيرة، أمّا الآن فهي قرى أو أملاك خاصة يملكها مواطنون، وتقع بعيدة عن روما مسافة 30 مرحلة أو أكثر بقليل. وعلى أي حال بين الحجر الخامس والسادس اللذان يحدّدان عدد أميال البعد عن روما، تقع منطقة تدعى فيستا. وكانت هذه المنطقة تعدّ حينئذٍ حدود منطقة روما. هنا وفي بعض الأماكن الأخرى، كما على المواقع الحدودية السابقة، يقدّم الكهنة[8] في اليوم نفسه، الذبيحة التي تدعى «أمبارفيا»[9]. وفي أثناء تأسيس المدينة، وقع خلاف بين الأخوين، ويقال إنه أدّى إلى مقتل ريموس[10]*. ولمّا فرغ من بناء المدينة، شرع رومولوس يجمع فيها أوباش الضواحي ومشرديها؛ فقد جعل من الأرض المقدّسة الواقعة بين الكريملين والكابيتول «ملجأ»[11]، وأعلن كلّ الجيران الذين فرّوا إليه لاجئين، أعلنهم مواطنين رومان. ولكن، بما أن رومولوس لم يحصل على حق التزاوج بين

---

* سكّان ألبا. - ح إ.

* هكذا ورد الاسم في النص الروسي. - ح.إ.

مواطنيه والجيران، فقد أقام يوماً مباراة لسباق الخيل تكريماً لبوسيدون، ولا تزال هذه المباراة تقام حتّى اليوم. وعندما اجتمعت الحشود (من السابين بشكل رئيس)، أمر رومولوس كلّ من أراد أن يتزوّج، أن يخطف فتاة من اللواتي جئن إلى المباراة. وفي البداية أراد تيتوس تاسيوس، ملك الكوريتيين أن يثأر[12] ليرد الإهانة، إلا أنه عدل عن القتال وعقد اتفاقاً مع رومولوس شرطه الشراكة في السلطة والدولة. وبعد أن قتل تاسيوس غدراً في لافيني، غدا رومولوس يملك وحده بعد أن وافق الكوريتيون على ذلك. وبعد رومولوس ورث السلطة الكوريتي نوموس بومبيليوس بموافقة الرعايا التابعين لسلطته. وتعدّ هذه القصة القصة الأكثر صحّة عن تأسيس روما.

3- ولكن هناك خرافة أخرى أكثر قدماً وذات طابع أسطوري تقول: إن روما كانت في الأصل مستعمرة أركادية أسّسها إيفاندرس. وقد استضاف هذا الأخير هرقل عندما كان يسوق ثيران هيريون. وإذ عرف إيفاندرس من والدته نيكوستراتا (وكانت هذه ضليعة في فنّ العرافة)، أن هرقل سوف يغدو إلهاً بعد أن يحقّق مآثره، نقل الخبر إلى هذا الأخير، وكرّس له قطعة أرض مقدّسة، وقدّم ذبيحة وفق الطقس الإغريقي، ولا يزال الطقس يؤدّى حتّى يومنا هذا تكريماً لهرقل. ويرى المؤرّخ الروماني كيلوس[13] أن هذا يعدّ برهاناً على أن الإغريق هم الذين أسّسوا روما: يؤدّى في روما طقس متوارث تقدّم فيه الذبيحة لهرقل وفق الشعائر الإغريقية. كما يبجّل الرومان والدة إيفاندرس، ويعدّونها واحدة من الحوريات، مع أنهم بدّلوا اسمها فباتت تدعى كارمينتا[14].

4- في الأول لم يكن عدد اللاتين كبيراً، وأكثرهم لم يلق إلى الرومان بالاً. ولكنّهم فيما بعد، وعندما أثارت بسالة رومولوس والملوك الذين خلفوه دهشتهم، خضعوا لهم. وبعد إخضاع الإيكويين، والفولسكيين، والجيرنيكيين، وقبل ذلك الروتوليين، والسكّان الأصليين (إضافة إلى بعض الريكيين، والأرغيروسكيين[15]، والبريثيرنيين)، باتت منطقة هذه القبائل كلّها تدعى لاسيوم. وكان الفولسكيون يملكون سهل بومينتين المجاور للاسيوم، ومدينة أبيولا التي دمّرها تركويني بريسكوس. ويعيش الإيكوبون في جوار الكوريتيين، وقد دمّر تركويني بريسكوس مدنهم أيضاً. ونجح ابنه في الاستيلاء على سويسّا، وهي مدينة الفولسكيين الرئيسة. وعاش الجيرينكيون على مقربة من لانوفي، وألبا، وروما نفسها. وغير بعيد كانت تقوم أريكيا، وتيللينا، وآتسي. وفي بادئ الأمر كان الألبانيون يتعايشون مع الرومان بوئام، لأنّ لغتهم كانت واحدة، كما كان الطرفان من العرق اللاتيني؛ ومع أنه كان لكلّ قبيلة منهما ملكها الخاص بها، كما عاشت كلّ منهما على حدة، إلاّ أنه كانت بينهما مع ذلك زيجات متبادلة، وقرابين مشتركة يقدّمونها في ألبا، وحقوق وواجبات

obeikandl.com

أخرى. ولكن عندما نشبت بينهما الحرب فيما بعد، دمّرت ألبا ما عدا المعبد، وصار الألبانيون إلى مواطنين رومان. وثمّة من المدن المجاورة الأخرى، مدن هدّمت، وأخرى لم تكن قد أخضعت، جرى الآن إخضاعها، ولكنّ بعضها الثالث ازداد قوّة بسبب ممالئته للرومان. ويدعى الساحل الآن من أوستيا حتّى مدينة سينويسّا، لاسيوم؛ وكان يمتدّ من قبل إلى كيركيه فقط. وفي الأزمنة السابقة لم تشمل لاسيوم سوى شطر غير كبير من المنطقة الداخلية، لكنّها امتدت فيما بعد لتصل حتّى كامبانيا ومنطقة السامنيتيين، والبيليغنيين وسواهما من الأقوام الأخرى التي تستوطن الأبينين.

5- ولاسيوم كلّها منطقة خيّرة وغنية بشتّى أنواع الغلال، ما عدا بعض الأماكن الساحلية المستنقعية غير الصحّية (مثل منطقة الأرديين، والمنطقة الواقعة بين آنسي ولانوفي حتّى سهل بومينتين وبعض الأماكن في منطقة سيتيا وضواحي تارّاكينا وكيركيه)، أو بعض الأماكن الجبلية والصخرية. وحتّى هذه الأخيرة ليست قاحلة تماماً ولا نفع منها، بل فيها مراع غنية، وغابات تعطي بعض الغلال التي تنبت في التربة المستنقعية الصخرية. ومع أن سهل كيكوب سهل مستنقعي، إلاّ أن الكرمة تزرع فيه، وتعطي أفضل أنواع النبيذ، وتدعى هذه الكرمة «بالدالية الخشبية»[16]. ومدن اللاتين الساحلية، هي أوستي، ليس فيها ميناء بسبب ما يحمله التيبر إلى هنا من ترسبات، وبسبب امتلائه بمياه روافده الكثيرة. ولذلك فإن السفن التجارية تخاطر وترمي مراسيها في عرض البحر. ولكنّ السعي إلى تحقيق الأرباح يغلب دوماً. فكثير من السفن المساعدة التي تسير بالمجاديف، تسرع إلى نقل الشحنات من عرض البحر، الأمر الذي يسمح للسفن الكبيرة بالإبحار في طريق العودة قبل أن يتسنّى للنهر اختطافها؛ وثمّة من السفن التي إذا خفّت حمولتها إلى حدّ معيّن، تدخل النهر وتمضي صاعدة فيه إلى مسافة 190 مرحلة عن روما نفسها. لقد أسّس مدينة أوستي، ليكوس مارسيوس. ثمّ تلي أوستي مدينة آنسي، وهي من غير ميناء أيضاً. وكانت قد بنيت على رقعة صخرية، وهي تبعد حوالي 260 مرحلة عن أوستي. وتعدّ هذه المدينة الآن مكاناً هادئاً يقضي الحكّام فيه أوقات راحتهم عندما يتحرّرون من أعباء الحكم، ولذلك بنيت في المدينة كثرة من المنازل الفخمة. وكان لدى سكّان آنسي فيما مضى سفن، وقد مارسوا مع التيرينيين أعمال القرصنة البحرية، مع أنهم كانوا قد خضعوا عندئذٍ لسلطة الرومان. ولذلك أرسل الإسكندر في الزمن القديم سفارة إلى روما يشكو من تلك الأعمال، وبعد ذلك أعاد ديميتريوس[17] إلى الرومان، القراصنة الذين قبض عليهم، وأمر بأن ينقل عنه إلى الرومان، أنه مع أنه يقدّم لهم جميلاً إذ يعيد إليهم أسراهم، احتراماً منه لصلة القرابة التي تربط بين الرومان والإغريق، إلا أنه يرى مع ذلك، أنه لا يليق بالناس

الذين يمتلكون إيطاليا أن يرسلوا عصابات من القراصنة، كما لا يليق بمن بنوا في ميدانهم العام معبداً للديوسكوري، وعبدوا أولئك الذين يدعوهم الجميع منقذين، أن يرسلوا في الوقت نفسه عصابات إلى اليونان تنهب موطن الديوسكوري. عندئذٍ حرّم الرومان على الأنتيسيين ممارسة هذا العمل. وفي الوسط بين هاتين المدينتين، تقع لافيني، حيث يقوم معبد أفروديت المشترك بين اللاتين كلّهم. ويقوم الأرديون على العناية بهذا المعبد عبر فريق من الكهنة. ثمّ تأتي بعد ذلك مدينة لافرينت. وإلى الأعلى من هذه المدن تقع أردييا، مستوطنة الروتوليين، على بعد 70 مرحلة عن البحر في عمق البلاد. ويقوم على مقربة من أردييا معبد آخر لأفروديت، حيث يحتفل اللاتين بأعيادهم الشعبية. ولكنّ السامنيتيين نهبوا هذه المنطقة، ومع أنه لم يبق هنا سوى بقايا مدن، إلاّ أنها أضحت شهيرة بإقامة إينياس فيها وبالطقوس المقدّسة (حسب الرواية) التي كانت تقام في تلك الأزمنة.

6- وبعد آنسي بـ 290 مرحلة يرتفع جبل كيركيه الذي يحيط به البحر والمستنقعات كأنه جزيرة. ويزعمون أن هذا الجبل غني بالجذور، وربّما لهذا السبب يربطونه بأسطورة كيركا[18]. وثمّة على الجبل مدينة صغيرة فيها معبد لكيركا، ومذبح لأثينا. ويعرضون هناك كأساً يقولون إنها كأس أوديسيوس. ويجري بين آنسي وكيركيه نهر ستورا، الذي تقوم عليه محطة للسفن. ثمّ يمتدّ بعد ذلك ساحل كيركيه. وفوق هذا الساحل في عمق البلاد يقع سهل بومينتين. وكان الأفسونيون يسكنون قبل ذلك، البلاد المتاخمة لهذا السهل، كما كانوا يسيطرون على كامبانيا أيضاً. ويأتي بعدهم الأوسكيون الذين كانوا يسيطرون بدورهم على شطر من كامبانيا. وكما قلت سابقاً[19]، إن هذه المنطقة كلّها، وصولاً إلى سينويسا، هي الآن ملك للاتين. لكنّ حدثاً غريباً وقع للأوسكيين والأفسونيين: مع أن الأوسكيين اندثروا، إلاّ أن لغتهم بقيت عند الرومان، فحتّى الملاحم التي كتبت بلغتهم تعرض على المسرح أثناء المباريات الاحتفالية القديمة وتؤدّى كإيمائيات[20]؛ ومع أن الأفسينيين لم يقطنوا يوماً منطقة بحر صقليا، إلاّ أن هذا البحر يدعى البحر الأفسوني. وبعد 100 مرحلة من كيركيه تأتي تارّاكينا، التي كانت تدعى قبل ذلك تراخينا، وذلك تبعاً لوضعها آنئذٍ[21]. ويقع أمامها مستنقع كبير يشكّله نهران، يدعى الكبير منهما أوفيدس[22]. وهنا تلامس البحر لأول مرّة، طريق أبيوس التي شقّت من روما حتّى برينتيسي، والتي غالباً ما يؤمّها الرحالة. ولا تصل هذه الطريق إلى أيّ مدينة بحرية أخرى غير تارّاكينا والمدن التي تليها: فورمي، ومينتورنا، وسينويسّا، وتارانت، وبرينتيسي النائيتين. وعلى مقربة من تارّاكينا، إذا انطلقت نحو روما، شُقّت على طول

طريق أبيوس قناة تمتلئ في أماكن كثيرة بمياه المستنقعات والجداول. وفي غالب الأحيان يبحرون في القناة ليلاً، فيركبون القارب مساء، وفي صباح اليوم التالي ينزلون منه ويتابعون ما تبقّى من الطريق برّاً؛ لكنّ الإبحار في القناة يجري في النهار أيضاً. وتجرّ البغال القوارب. ثم تأتي بعد ذلك مدينة فورمي، وهي مستعمرة لاكونية كانت من قبل تدعى هورميا، بسبب محطة السفن الجيّدة فيها[23]. كما أعطى اللاكونيون الخليج الواقع بين تارّاكينا وفورمي اسم كايتا، لأنهم يدعون أيّ تجويف «كايتا»[24]. ويزعم بعضهم أن الخليج حمل هذا الاسم تيمّناً باسم مرضعة إينياس[25]. ويبلغ طول الخليج من تارّاكينا إلى رأس تحمل الاسم نفسه، 100 مرحلة. وتوجد هنا كهوف مفتوحة عظيمة الحجم فيها مساكن فسيحة فخمة. والمسافة من هنا إلى فورمي 40 مرحلة. وتقع بين فورمي وسويسّا، مدينة مينتورنا، وهي تبعد عن المدينتين حوالي 80 مرحلة. ويجري عبر مينتورنا نهر ليريس، الذي كان يدعى قبل ذلك كلانيس. وينبع هذا النهر من الجزء الداخلي للبلاد، من جبال الأبينين ومن منطقة الفيستينيين، على مقربة من قرية فريجيلا (وكانت هذه قبل ذلك مدينة شهيرة)، ويصبّ تحت المدينة في دغل مقدّس يجلّه سكّان مينتورنا إجلالاً عظيماً. وقبالة الكهوف تقع في عرض البحر جزيرتان: بانداتيريا وبنتيا (ومع أنهما صغيرتان إلاّ أنهما مسكونتان بكثافة)، واحدتهما قريبة من الأخرى، ولا تبعدان عن البر أكثر من 250 مرحلة. ويجاور خليج كايتا سهل ليكوب، وتجاور هذا الأخير مدينة فوندا، وهي مدينة واقعة على طريق أبيوس. وهذه الأماكن كلّها غنيّة جدّاً بالنبيذ الجيد، ويشتهر على وجه الخصوص نبيذ كيكوب، وفوندا، وسيتينا، على مستوى شهرة نبيذ فاليري، وألبا، وسيتيا. وتقع سينويسّا في خليج كايتا، ومن هنا اشتقّ اسمها («سينوس» تعني «خليج»). وغير بعيد عن سينويسّا تقع حمّامات ساخنة لها فاعلية قوية ضدّ بعض الأمراض[26]. لقد كان هذا عن مدن اللاتين الساحلية.

7- وأوّل مدينة فوق أوستيا في أعماق البلاد، هي روما، وهي إضافة إلى ذلك، المدينة الوحيدة على نهر التيبر. وكما أسلفت الحديث[27] عن هذه المدينة، فإن تأسيسها جاء تلبية لضرورة، ولم يكن خياراً. وينبغي أن نضيف هنا، أنه حتّى أولئك الذين بنوا فيما بعد أجزاء جديدة في المدينة، لم تكن أمامهم فرصة اختيار المكان الأفضل، بل كانوا مرغمين على أن يتلاءموا مع ما هو قائم. لقد بنى المؤسّسون الأوائل سوراً حول الكابيتول، والبالاتين، وهضبة كويرينال التي كان وصول الغرباء إليها سهلاً إلى درجة أن تيتوس تاسيوس استولى عليها بهجوم واحد عندما جاء ليثأر لخطف الفتيات[28]. ثمّ جاء أنكوس مارسيوس وألحق بالهضاب الثلاث، جبل كيلوس، وجبل

أفينتين والسهل الواقع بينهما، وكان هذان الجبلان منفصلين واحدهما عن الآخر، وعن أجزاء المدينة الأخرى التي كانت قد أحيطت بالسور؛ بيد أنه فعل هذا بحكم الضرورة. والحق يقال، إنه لم يكن من الحكمة في شيء أن تترك خارج الأسوار هضبتان منحتهما الطبيعة نفسه تحصيناً قوياً، لتكونا لقمة سائغة لكلّ طامع، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، لم يكن بمقدور مارسيوس أن يملأ [بالأبنية] المدى كلّه حتّى هضبة كويرينال. ولكن سرفيوس سدّ هذا النقص؛ فقد بنى المدينة، بعد أن ألحق بها هضبة إيكويلين، والفيمينال. بيد أن هاتين الهضبتين كانتا أيضاً، سهلتي المنال لأيّ عدوّ خارجي. ولذلك حفر الرومان خندقاً عميقاً ورموا التراب إلى الجهة الداخلية للخندق، ورفعوا هنا منحدراً طوله حوالي 6 مراحل على الحد الداخلي للخندق، وبنوا فوقه سوراً وبرجاً من البوابات الكوللينية حتّى البوابات الإيسكولينية. وتحت وسط المنحدر تقع البوابات الثالثة، التي تحمل اسم هضبة الفيمينال نفسه. على هذا النحو كانت تحصينات المدينة، مع أنه كانت هناك حاجة لنسق ثان منها. ويهيأ لي أن بناة المدينة الأوائل كان يحكمهم اعتبار واحد رأوا من خلاله مصالحهم ومصالح أحفادهم: ينبغي على الرومان ألاّ يتوسلوا الأمن والرخاء من تحصينات مدينتهم، بل من قوّة سلاحهم وبسالتهم؛ فليست الأسوار هي التي تحمي الناس، بل الناس هي التي تحمي الأسوار. وبما أن الأراضي الخصبة الشاسعة التي كانت تحيط بروما، كانت في بادئ الأمر ملكاً للآخرين[29]، كما كانت حدود المدينة هدفاً سهلاً للاعتداءات، فإن موقع المدينة الذي جاء هبة من القدر، لم يكن واعداً بالحياة السعيدة. ولكن عندما امتلك الرومان هذه الأرض برجولتهم وجهودهم، أضحت بين أيديهم ثروة تفوّق أي ميزات طبيعية كانت. فالمدينة التي نمت واتسعت نتيجة لتراكم الخيرات هذا، باتت تتوفّر على احتياطات كافية من المؤن، وخامات الغابات، والحجارة لبناء المساكن، وهو النشاط الذي يتواصل من غير انقطاع، بسبب الانهدامات، والحرائق، وبيع المساكن وإعادة بيعها (وهذه الحالة الأخيرة دائمة الحضور)؛ فبيع المساكن وإعادة بيعها، هو فعلاً، إذا صحّ القول، عملية تهديم متعمّد للمنازل السكنية، لأنّ الشاري غالباً ما يهدم المنزل الذي اشتراه، ليبني منزلاً آخر وفق ذوقه[30]. وثمّة كثرة من مقالع الحجارة، والغابات توفّر كميات مهولة من مواد البناء اللازمة لتواصل حركة البناء المذكورة، كما توجد أنهار كثيرة تنقل هذه المواد في مياهها؛ ويأتي في المقام الأول بين هذه الأنهار، نهر أنيون الذي ينبع من ألبا (وهي مدينة لاتينية تقع قرب منطقة المارسين)، ويعبر واد يقع تحت ألبا، ليلتقي بعد ذلك مع نهر التيبر؛ ويليه نهر نار ونهر تينييوس، اللذان يجريان عبر أومبريكا ليصبّا بعد ذلك في نهر

التيبر أيضاً؛ ويجري عبر تيرينيا ومنطقة كلوسي، نهر كلانيس. وكان قيصر أغسطس قد اتخذ إجراءات لمواجهة الكوارث التي قد تحلّ بالمدينة: جنّد فرقة من المعتوقين[31]، ودربهم لمكافحة الحرائق، وللحدّ من وقوع الانهيارات، وأمر بتقليص ارتفاع المباني، ومنع بناء منازل ارتفاعها 70 قدماً في الشوارع العامّة. وعلى أي حال كان يمكن أن تتوقف إعادة بناء المنازل، لو كان ثمّة نقص في مقالع الحجارة، والأخشاب، ووسائل النقل الخفيفة بالطرق المائية.

8- هذه المنافع تمنحها الطبيعة للمدينة. لكنّ الرومان زادوا عليها ميزات أخرى بفضل يقظتهم وبعد نظرهم. وإذا كان الإغريق قد نجحوا نجاحاً خاصاً لدى تأسيس المدن، في تحقيق سعيهم إلى الجمال، والمناعة، ووجود المرافئ، والتربة الخصبة، كما يروى، فإن الرومان أولوا اهتمامهم على وجه الخصوص لما لم يوله الإغريق أيّ اهتمام: بناء الطرقات، وقنوات الماء، ومصارف الصرف الصحّي التي كانت تحمل قاذروات روما إلى التيبر. كما بنى الرومان أيضاً الطرقات عبر البلاد، فحفروا الهضاب وبنوا المنحدرات إلى الوهاد، بحيث تستطيع عربات النقل أن تنقل الشحنات التي تحملها السفن التجارية. لقد بنى الرومان قنوات الصرف الصحّي على شكل قناطر حجرية مرصوصة البنيان، وتركوا فيها مجالات كافية لعبور أحمال الحشائش. أمّا قنوات المياه فهي تنقل كميات مهولة منها، بحيث تعبر المدينة وتتدفق عبر قنوات الصرف الصحّي أنهار حقيقية. وفي كلّ بيت من بيوت روما تقريباً يوجد خزان ماء، وأنابيب لجرّ الماء إلى أنحاء المنزل ونوافير مياهها غزيرة جدّاً. وكان ماركوس أغريبا قد أولى هذا كلّه عناية كبيرة، كما زين المدينة بكثير من المنشآت الفخمة الأخرى. وعلى وجه العموم فإن الرومان القدماء كانوا يهتمون بأمور أخرى مصيرية وضرورية، ولذلك لم يولوا جمالية روما اهتماماً يذكر. أمّا في الزمن المتأخر، خاصة الرومان المعاصرين لي ومن سبقهم ببعض الوقت، فهؤلاء لم يقصّروا بتزيين مدينتهم بكثير من المنشآت البديعة. والحق يقال، إن بومبيوس، وقيصر الإلهي، وأغسطس، وأبنائه، وأصدقائه[32]، وزوجته، وأخته تفوّقوا على الآخرين كلّهم، ولم يدّخروا جهداً ولا مالاً في إدارة عملية العمران. ويقع الجزء الأكبر من هذه الأبنية في حقل مارس، حيث تنضم إلى جمال الطبيعة جمالية فنّ الإنشاء. والواقع أن اتساع الحقل نفسه يثير الدهشة، لأنه على الرغم من وجود هذا العدد الكبير من الناس الذين يلعبون بالكرة، ويدحرجون الإطارات أو يتدربون على المصارعة، إلاّ أنه يبقى هناك في الوقت نفسه، مكان لسباق المركبات ومختلف تمارين الفروسية الأخرى. وتحيط بحقل مارس أيضاً، الأعمال الفنية، وتغطي الأرض على مدار العام زهور وأعشاب، وتيجان التلال التي تطلّ على النهر، وتمتدّ حتّى

obeikandi.com

تبلغ مجراه، ليشكّل هذا كلّه ما يشبه الديكور المسرحي الذي يصعب أن تحوّل النظر عنه. ويمتدّ على مقربة من هذا الحقل حقل آخر[33]، وينتشر في محيط المكان كثير من الأروقة، والحدائق، وثلاثة مسارح، ومدرج، ومعابد بهية بعضها خلف بعض، وعلى هذا النحو يغدو وصف ما تبقّى من المدينة أمراً لا حاجة له. وقد عدّ الرومان هذا المكان الأكثر قدسية، ولذلك أقاموا فيه نصباً تذكارية لأعظم رجالاتهم ونسائهم. وأبرز هذه النصب النصب الذي يدعى الضريح[34]، وهو عبارة عن جثوة قائمة على قاعدة عالية من المرمر الأبيض على مقربة مباشرة من النهر، والمكان مزروع بأشجار كثيفة دائمة الخضرة. ويقوم في أعلى قمة الجثوة تمثال برونزي لأغسطس قيصر. وتحت الجثوة قبر قيصر نفسه، وقبور أقاربه والمقرّبين منه. وتقوم وراء الضريح حديقة كبيرة فيها ممرّات ساحرة للتنزّه. وفي وسط الحقل سور يحمي مكان رماد جثمان أغسطس، وهو مبنيّ من المرمر الأبيض أيضاً[35]؛ ويحيط بهذا السور قفص حديدي، أمّا المكان في الداخل، فهو مزروع بأشجار من الحور الأسود. وإذا ما ذهبت مرّة أخرى إلى الميدان القديم، فسوف ترى ميادين متوضّعة واحدها بموازاة الآخر، وبازيليكات، ومعابد؛ وسترى الكابيتول أيضاً، وأعمال الفنّ الموجودة هناك على البالاتين وفي حدائق ليبيا، وسوف تنسى بسهولة كلّ ما هو موجود خارج المدينة. وتلكم كانت روما.

9- أمّا مدن لاسيوم فإنه يمكن أن نحدّد موقعها بمؤشرات مختلفة في بعض الحالات، وفي حالات أخرى حسب أشهر الطرقات التي شقّت في لاسيوم، لأنّ هذه المدن تقع إمّا على هذه الطرقات، وإمّا على مقربة منها، أو بينها. وأشهر الطرقات هي: طريق أبيوس، والطريق اللاتينية، وطريق فاليري. وتفصل طريق أبيوس المدن الساحلية حتّى سينويسّا، بينما تفصل طريق فاليري الشطر الواقع عند منطقة السابين حتّى بلاد المارسيين؛ أمّا الطريق اللاتينية فهي تمرّ بينهما؛ لكنّها تتّصل بطريق أبيوس عند كاسيلين، وهي مدينة تقع على بعد 90 مرحلة من كابويا. وتبدأ الطريق اللاتينية من طريق أبيوس، ثمّ تنعطف يساراً على مقربة من روما، وبعد أن تعبر جبل توسكولان بين مدينة توسكول وجبل ألبا، تنحدر نحو مدينة ألجيد ومنازل البيكتيين. وتتّصل بعدئذٍ بالطريق اللابيكانية؛ وهذه الأخيرة، مثلها مثل الطريق البرينستية تبدأ عند البوابات الإيسكويلينية، لكنّها تترك الطريق البرينيستية والسهل الإيسكويليني وتنعطف يساراً لتعبر أكثر من 120 مرحلة مقتربة من لابيك. وكانت هذه المدينة القديمة تقع على تلّ عال، لكنّها الآن مدمّرة. ثمّ تخلّف توسكول وتتّجه يميناً لتنتهي عند البيكتيين والطريق اللاتينية. ويقع هذا المكان على بعد 210 مراحل عن روما. ثمّ تنتشر على الطريق اللاتينية نفسها مستوطنات ومدن ذات شأن: ثيرينتين، وفروسينون (التي

يجـري نهـر كوسـا علـى مقربـة منهـا)، وفابراتيريـا (الـتي يجـري علـى مقربـة منهـا نهـر تريـر)، وأكـوين (وهـي مدينـة كـبيرة يجـري قربهـا نهـر كـبير، هـو نهـر ميلبيـوس) وإينترامنوس (التي تقع عند نقطة التقاء نهر ليريس مع نهر آخر)، وأخيراً كاسـين (وهـي مدينة مهمّة أيضاً)، وهي آخر مدن لاسيوم، فمدينة ديان سيديسين التي تقع بعد كاسين، تبيّن من خلال صفتها نفسها، أنها من مدن السيدينيين. وهؤلاء هـم الأوسـكيون، قبيلة من قبائل كامبانيـا المنـدثرة. وعليـه فالمدينـة يمكـن أن تعدّ مدينـة كامبانيـة، مـع أنهـا أكـبر المدن الواقعـة علـى الطريـق اللاتينيـة، وعلـى النحـو نفسـه يمكـن أن نعـد مدينـة الكـالينيين[36] (وهي مهمّة أيضاً) التي تليها مباشرة، مع أنها تتاخم كاسيلين.

10- وعلى جانب الطريق اللاتينية بدءاً من اليمين، تقع بينها وبين طريق أبيوس، مدينتا سيتيا وسيغنيا اللتان تنتجان النبيذ؛ فالأولى تنتج أغلى أنواعه ثمناً، وتنتج الثانية نبيذاً هـو أفضـل وسـيلة لقـبض المعـدة، ويـدعى بالنبيـذ «السـيغنيني». وبعـد ذلـك، مقابـل سيغنيا تقع بريفيرن، وكورا، وسويسّا، وترابونتي، وفيليترا، وأليتري. وإلى جانب هـذه، هناك أيضاً فريجيلا التي يجري قربها نهر ليريس. ويقع مصبّ هذا النهـر عنـد مينتورنـا، وليست هذه الآن سوى مستوطنة لا أهمية لها، بينما كانت فيما مضى مدينة لها شأن إذ كانت تسود على كثير من المدن الأخرى الطرفية التي ذكرناها الآن. وحتّى يومنـا هـذا لا يـزال سـكّان هـذه المـدن يجتمعـون في فـريجيلا، فيقيمـون المعـارض ويـؤدون بعـض الشعائر المقدّسة. ولكنّ الرومان دمّروا المدينة بعد انتفاضتها عليهم. ويقع كثير من هذه المـدن، مـدن الطريـق اللاتينيـة كمـا مـدن الجهـة الأخـرى منهـا، يقـع في منطقـة الجيرنيكـيين، والإيكـويين، والفولسـكيين؛ وكـان الرومان هـم الـذين أسّسـوها كلّهـا. وعلـى يمـين الطريـق اللاتينيـة، بينهـا وبـين طريـق فـاليري، تقـع مـدن قائمـة علـى الطريـق البرينيستية؛ وتعدّ مدينة غـابي بمقلـع حجارتهـا، هـي المدينـة الأكثـر نفعـاً لرومـا مـن بـين باقي المدن الأخرى؛ وتقع هذه المدينة على مسافة واحدة من روما وبرينيست - 100 مرحلة تقريبـاً. ثـمّ تـأتي بعـدها برينيسـت الـتي سـوف أتحـدّث عنهـا قريبـاً. تليهـا المـدن الجبليـة الواقعة فوق برينيست: مدينة الجيرنكيين الصغيرة كابيتول، وأنـا غنيـا المدينـة المهمّـة، وكيرياتيه، وسورا الـتي يجـري قربهـا نهـر ليريـس في طريقـه إلى فـريجيلا ومينتورنـا؛ ثـمّ يلي هذه عدد من المدن الأخرى ومدينة فينـا فـروس الـتي تنـتج أفضـل أنـواع زيـت الزيتـون. وتقع مدينة فينافروس هذه فوق مرتفع، ويجري عند سفوح التلّ نهر فولتورن الذي يجري أيضاً قرب كاسيلين ليصبّ في البحر عند مدينـة تحمـل اسـم النهـر نفسـه. أمّـا إيسـيرنيا وأليفا فهما مدينتان سامنيتيتان؛ وكانت الأولى قد دمّرت أثنـاء الحـرب المارسـية، بينمـا الأخرى باقية حتّى الآن.

11- تبـدأ طريـق فـاليري مـن تيبـورا ، وتقـود إلى منطقـة المارسـيين فكورثينيـا عاصمة البيليغنيين. وتقع على طريق فـاليري المدن اللاتينيـة الآتيـة: فاريـا ، وكارسـيولا ، وألبا؛ كما تقع على مقربـة منهـا مدينـة كوكـول. وتظهـر لسـكّان رومـا مـدن تيبـورا ، وبرينيسـت، وتوسـكول. ويوجد في تيبـورا معبـد لهرقـل وشـلال مـاء يشـكّله نهـر أنيـون الصالح للملاحة ، والذي يهوي عند المدينة مباشرة من ارتفـاع عـال إلى فـجّ عميق تغطيـه الأدغـال حتّـى المدينـة نفسـها. ومـن هنـا يجـري النهـر عبر سـهل شـديد الخصوبة ، وعلـى مقربـة مـن مقـالع الحجـارة التيبورتيـة ، والغابيّـة ، ومقـالع مـا يـدعى بالحجـارة الحمـراء؛ ولذلك فإنّ نقل الحجارة من مقالعها ، وشحنها بالطريق المائية ، أمر يسير تمامـاً؛ وأكثـر الأعمال الفنية في روما نفّذت بالحجارة المنقولة من هنـا. وتجـري عبر هـذا السـهل أيضـاً ، المياه التي تسـمى ميـاه ألبـولا[37] ، وهـي ميـاه بـاردة مـن ينـابيع كثيرة تشـفي مـن أمـراض شتّى ، وتستخدم للشرب والاغتسال. ولمياه ألبا[38] الخاصية نفسها أيضـاً ، وتقـع هـذه غـير بعيد عن الأولى على الطريق النومينتانية في منطقة قريبـة مـن إيريـت. ويقـوم في برينيسـت معبـد لفورتونـا اشـتهر بكهنتـه المتنبيـئن. وتقـع هاتـان المـدينتان عنـد السلسـلة الجبليـة نفسها ، وتبعـد واحـدتهما عـن الأخـرى مـا يقـارب 100 مرحلـة؛ وتبعـد برينيسـت عـن رومـا ضعف هذه المسافة ، أمّـا تيبـورا فتبعـد عنهـا مسـافة أقلّ بمـرتين. هـذه المـدن ، هـي كمـا يزعمون ، مدن إغريقية. وعلى أيّ حال فإن برينيست كانت تدعى سـابقاً كمـا يقولـون ، بوليستيفان. إن الطبيعة نفسها كانت قد حصّنت كـلاً مـن هـذه المـدن ، لكـنّ تحصـين برينيسـت كـان الأفضـل ، فبـدلاً مـن الأكروبـوليس ، يرتفـع فـوق المدينـة جبـل عـال[39] يفصله من الخلف عن السلسلة الجبلية التي يتّصل بها ، برزخ؛ ويعلـو الجبـل فـوق السلسـلة بالاتجاه الشاقولي مرحلتين. وإضافة إلى هذا الحصن الطبيعي ، شقّت تحت المدينة أنفـاق من جهاتها كلّها وصولاً إلى السهول ، بعضـها يسـتخدم لاسـتجرار الميـاه ، وبعضـها الآخـر مخـارج سـرّيّة. وفي واحـد مـن هـذه الأنفـاق لاقـى مـاريوس حتفـه محاصـراً[40]. ومـع أن الـدفاعات الجيّـدة كانـت خـيراً للمـدن الأخـرى كلّهـا ، لكنّهـا كانـت بالنسـبة للبرينيسـتيين وبـالاً ، وسـبب الانتفاضـات عنـد الرومـان. فقـد كـان العصـاة يجـدون فيهـا ملجأ أميناً لهم[41]. وعندما يضطرون إلى الاستسـلام بعـد محاصـرة المدينـة ، كانـت هـذه تنهب وتخسر من أراضيها ، لأنّ الوزر كـان يُلقـى دائمـاً علـى الذين لا ذنب لهم. وعبر هـذه المنطقة يجري نهر فيريستيس. والمدن المذكورة تقع كلّها شرقي روما.

12- وأقرب إلى روما من هذه البلاد الجبلية ، سلسـلة جبليـة أخـرى[42] ، تشـكّل بينهما على مقربـة مـن ألجيـد ، واديـاً مرتفعـاً يمتـدّ حتّـى جبـل ألبـا. وعلـى هـذه السلاسـل الجبلية تقع مدينـة توسـكول ، وهـي مدينـة منظمـة تنظيمـاً لا بـأس بـه. فمحيطهـا مـزدان

بغراس خضراء وفيلاّت تتوضّع تحت المدينة باتجاه روما. لأنّ توسكول هنا عبارة عن هضبة خصبة فيها وفرة من المياه، وفي كثير من الأماكن تنساب الهضبة صاعدة تزيّنها قصور فخمة باذخة. وتتاخم هذه الهضبة عند سفوح جبل ألبا، أماكن بديعة ساحرة تزدان بقصور رائعة. وتلي ذلك سهول يتاخم بعضها روما وضواحيها، ويتاخم بعضها الآخر البحر. والحقيقة أن السهول الساحلية أقلّ ملاءمة للصحّة، لكنّ الأخرى مناسبة لعيش الإنسان، وتوشيها مباني مماثلة. وبعد جبل ألبا تأتي أريكيا، وهي مدينة واقعة على طريق أبيوس، على بعد 160 مرحلة من روما، داخل منطقة عميقة، ولكن بصرف النظر عن هذا، فإن الطبيعة هي التي حصّنت الأكروبوليس فيها. وإلى الأعلى من أريكيا تقع لانوفي، وهي مدينة رومانية قائمة على الجانب اليميني من طريق أبيوس، ومنها يرى البحر وآنسي، وعلى يسار الطريق، إذا انطلقت من أريكيا، يقع معبد أرطميس الذي يدعونه «دغل أرطميس». ويقال إن معبد أرطميس الأريكية[43]، هو نسخة طبق الأصل عن معبد أرطميس تافروبولوس، والحق يقال إن العنصر البربري[44] والسكيثي هما العنصران الغالبان في طقوسها المقدّسة. فكاهنها مثلاً، هو دائماً عبد فار قتل الكاهن السابق. ولذلك فإنه لا يفارق سيفه، فهو ينتظر أن يهاجمه أحدهم في أي لحظة، وينبغي أن يكون على استعداد دائم للدفاع عن نفسه[45]. ويقوم المعبد في دغل مقدّس، أمامه بحيرة تشبه البحر، وترتفع حول المكان قمم جبلية شاهقة متصلة تحتضن المعبد وحوض الماء في مرجل مجوف وعميق. ويمكن رؤية الينابيع نفسها التي تملأ البحيرة[46] (لقد دعي أحدها - إيجيريا - باسم أحد الآلهة)، لكنّ مخارج [الينابيع] إلى البحيرة غير ظاهرة، مع أنها تظهر بعيداً خارج المرجل حيث تخرج إلى سطح الأرض.

13- وعلى مقربة من هذه الأماكن يقع جبل ألبا، الذي يعلو كثيراً على معبد أرطميس والقمم الجبلية المحيطة به، مع أنها عالية بما يكفي ومنحدرة انحداراً شديداً. وثمّة على هذا الجبل بحيرة[47] أكبر بكثير من تلك التي عند معبد أرطميس. وخلف هذه الجبال تقع المدن اللاتينية المذكورة. وأبعد هذه الأخيرة في عمق البلاد، مدينة ألبا، الواقعة على الحدود مع المارسيين. وهي تقع فوق تلّ عال قرب بحيرة فوكين[48]، التي تشبه البحر من حيث اتساعها. ويستخدم البحيرة بشكل أساسي، المارسيون وسكّان الجوار كلّهم. ويروى عنها أنها تمتلئ بالماء أحياناً حتّى قمم الجبال، لكنّها تنخفض أحياناً أخرى إلى حدّ تجف فيه أماكنها المستنقعية وتغدو قابلة للزراعة، أو تحدث في أعماقها هنا وهناك انتقالات غير مرئية للمياة الجوفية، تعود هذه بعدها لتتلاقى من جديد، أو قد تختفي الينابيع تماماً، ثمّ تنبثق إلى السطح مرّة أخرى، كما يحدث على حدّ قولهم لأمينان، النهر الذي يجري عبر كاتانا. فهذا النهر يختفي فعلاً لعدة سنوات،

ثمّ يعود ليجري من جديد. ويروون كذلك أن ينابيع مياه مارسيا التي تزوّد روما بمياه الشرب وتثمّن أكثر من أي مياه أخرى، هذه الينابيع تنبع من بحيرة فوكين. وبما أن ألبا تقع في عمق البلاد، وهي محصّنة تحصيناً جيّداً، لذلك كثيراً ما يجعل الرومان منها سجناً يضعون فيه الشخصيات التي ينبغي أن تكون تحت المراقبة[49].

الفصل الرابع

1- إننا إذ بدأنا من [مناطق] أقوام الألب، وأجزاء جبال الأبينين المجاورة لها، ثمّ بعد أن عبرناها، فإننا نكون قد عبرنا بذلك كلّ البلاد الواقعة بين البحر التيريني وجبال الأبينين التي تميل نحو البحر الأدرياتيكي حتّى منطقة السامنيتيين والكامبانيين. وهاأنذا أعود الآن القهقرى لأصف الأقوام التي تعيش في هذه الجبال وعلى منحدراتها، إن على الجهة الأخرى حتّى حدود الأدرياتيكي، أو في مناطق هذه الجهة. ولكن ينبغي علينا أن نبدأ مرّة أخرى من الحدود السلتية[1].

2- فبعد مدن الأومبريكيين الواقعة بين أريمين وأنكونا، تأتي منطقة بيكينتين. وقد خرج البيكينتينيون من منطقة السابين، وكان نقّار الخشب الأسود، هو دليل قادتهم. ومن هنا اشتقّ اسمهم، فهم يدعون هذا الطير «بيك»[2] ويعدّونه طير أريس المقدّس. ويشغل هؤلاء المنطقة التي تمتدّ عرضاً. وتعدّ هذه البلاد بلاداً ملائمة جدّاً لزراعة مختلف أنواع المحاصيل، لكنّ زراعة الأشجار المثمرة فيها أفضل من زراعة الأقماح. إن عرض البلاد من الجبال إلى البحر على امتدادات مختلفة، هو غير متماثل، بينما طولها إذا أبحرت على طول الساحل ابتداء من نهر إيسيس حتّى كاستروم، 800 مرحلة. ومدن منطقة بيكينتين هي أولاً، أنكونا، وهي مدينة إغريقية أسّسها السيراكوزيون الذي فرّوا من طغيان ديونيسيوس. وتقع أنكونا على الرأس التي تتقعر نحو الشمال لتشكّل ميناء، وهي غنية جدّاً بالنبيذ الممتاز، والقمح. وعلى مقربة من أنكونا تقع مدينة آوكسوم، غير بعيد فوق البحر. تليها سيبتمبيدا، بنيفينسيا، وفيرمومبيكينوم ومحطة سفنها كاستيل، ثمّ يأتي بعد ذلك معبد كوبرا الذي أسّسه وشيّده التيرينيون، فهؤلاء يسمّون هيرا «كوبرا». ويلي ذلك نهر ترووينتين، فمدينة تحمل الاسم نفسه؛ وكوستروم نوفوم، ونهر ماترين (الذي ينبع من مدينة الأدريانيين) وتقع على هذا النهر محطة سفن أدريا، التي تحمل اسم النهر نفسه. وفي عمق البلاد تقع أدريا، وأسكولوم بيكينوم، وهو مكان حصّنته الطبيعة تحصيناً ممتازاً لا بتلّ فوقه سور، فقط، بل وبجبال عصية على حركة الجيوش، تحيط بالمكان من كلّ صوب.

ووراء منطقة بيكينتين يشغل الفيستينيون، والمارسيون، والبيليغنيون، والمارّوكينيون، والفرينتانيون (قبيلة سامنتية)، البلاد الجبلية، ولا يلامسون البحر إلاّ في بعض لأماكن. والحقيقة أن هؤلاء ليسوا أقواماً كبيرة، بيد أنهم يتميّزون بشجاعة فائقة، وقد أظهروا بسالتهم للرومان غير مرّة: أولاً، عندما حاربوا الرومان، ثانياً، عندما كانوا حلفاءهم؛ ثالثاً، عندما رغبوا في نيل حريتهم وحقوق المواطنية، ولمّا لم يحصلوا عليها ثاروا وأشعلوا نار الحرب التي تدعى بالحرب المارسية. لقد أعلنوا كورفيني، مدينة البيليغنيين الرئيسة، عاصمة للإيطاليين كلّهم بدلاً من روما، وجعلوا منها قاعدة العمليات الحربية، وغيّروا اسمها إلى «إيتاليكا»[3]. وجمعوا هناك أنصارهم كلّهم، وانتخبوا قناصل وقضاة[4]، وخاضوا حرباً عنيدة استمرت عامين، إلى أن نالوا المساواة في الحقوق، وهو الهدف الذي خاضوا الحرب من أجله. لقد دعوا هذه الحرب بالحرب المارسية على اسم حماة الانتفاضة، خاصة اسم المارسي بومبيديوس[5]. ويعيش أكثر هذه القبائل في قرى، لكن عندهم مدناً أيضاً: فوق ساحل البحر كورفيني، وسولمون، وماروفي، وتياته، وهي مدينة المارّوكينيين الرئيسة؛ وعلى البحر مباشرة أتيرن، وهي سميّة نهر يفصل بين الفيستينيين ومنطقة المارّوكينيين. وينبع هذا النهر من منطقة امينتيرن ويجري عبر بلاد الفيستينيين، تاركاً على يمينه شطراً من المنطقة المارّوكينية الواقعة فوق البيليفنيين؛ ويمكن عبور النهر من فوق على جسر عائم. والحقيقة أن هذه المدينة الصغيرة التي تحمل اسم النهر، هي مدينة للفيستينيين، إلاّ أنه يقدّم خدمات للبيليغنيين، والماروكينيين، بصفته محطة سفن مشتركة. ويقع الجسر المتحرّك على بعد 24 مرحلة من كورفيني. ثمّ تلي إيتيرن أورتون، وهي محطة سفن الفرينتانين، وبوكا التي للفرينتانيين أيضاً، وهي محاذية لتيانوم أبولوم. وتقع أورتوني[6] في منطقة الفرينتانيين، على أرياف صخرية، ويقطنها القراصنة الذين يبنون مساكنهم هناك من كسرات أخشاب السفن؛ وهؤلاء يشبهون الوحوش في النواحي الأخرى كلّها. ويجري بين أورتون وأتيرن، نهر ساغر الذي يفصل بين بلاد الفرينتانيين وبلاد البيليغنيين. ويبلغ طول الطريق على امتداد السواحل من منطقة بيكينتين إلى منطقة الأبوليين الذين يدعوهم الإغريق بالدافنيين، حوالي 490 مرحلة.

3- بعد لاسيوم تأتي كامبانيا التي تمتدّ على طول البحر، وفوق كامبانيا (في داخل البلاد) تقع منطقة السامنيتيين، وصولاً حتّى بلاد الفرينتانيين والدافنيين؛ ثمّ الدافنيون أنفسهم وباقي القبائل الأخرى حتّى مضيق صقليا. وينبغي عليّ أن أتحدّث في المقام الأول عن كامبانيا. فمن سينويسّا وعلى طول الساحل الذي يلي، يمتدّ خليج[7]

كبير جداً يصل حتّى ميسين، ثمّ يليه خليج آخر (يدعونه كراتير)، أكبر من السابق بكثير، ويبدأ هذا الأخير من عند ميسين ليشقّ عميقاً بين الرأسين البحريتين، ميسين وأثينيوس[8]. فوق هذه السواحل تقع كامبانيا.وهي أكثر السهول خصوبة بين السهول الأخرى كلّها. وتحيط بها هضاب السامنيتيين والأوسكيين وجبالهم الخصبة. وحسب أنطوخ أن الأوبيكيين الذين يدعونهم كذلك بالأفسونيين، كانوا يعيشون في زمن ما في هذه المنطقة. أمّا بوليبيوس فهو على الضدّ من هذا، إذ يوحي بأنه يرى فيهما قبيلتين مختلفتين. فهو يقول، إن «الأوبيكيين والأفسونيين يعيشون في هذه البلاد حول كراتير». ولكنّ آخرين يزعمون، أنه على الرغم من أن الأوبيكيين والأفسونيين عاشوا في هذه البلاد من قبل، إلاّ أن السيديسينيين (إحدى قبائل الأوسكيين)، بسطوا سيطرتهم عليها فيما بعد، ثمّ طردهم الكومسيون منها، وهؤلاء بدورهم طردهم منها التيرينيون. فبسبب خصوبته، كان هذا السهل موضع صراع دائم. لقد بنى التيرينيون هنا 12 مدينة، كانت إحداها بمثابة المدينة الزعيمة، وقد دعوها كابويا[9]. لكن فخامة عيش التيرينيين أفضت بهم إلى التنعّم والتخنّث، ولذلك كان عليهم كما سبق وخسروا منطقة باد، أن يتخلّوا عن هذه البلاد أيضاً للسامنيتيين، الذين طردهم الرومان من هناك. والبرهان على خصوبة كامبانيا، هو أنها تنتج أقماحاً رائعة، خاصة الحنطة التي يصنعون منها برغلاً نوعيته أفضل من أي نوع من أنواع الرزّ، كما يصنعون منها أيضاً مختلف المأكولات التي تصنع من الدقيق. ويقولون، إن بعض الحقول يزرع بالحنطة الرومية مرتين في العام، وتزرع دخناً في المرّة الثالثة، وثمّة حقول تزرع في المرّة الرابعة بالخضار. ضف إلى هذا أن الرومان يحصلون من هناك على أفضل أنواع النبيذ: النبيذ الفاليرني، والستاتاني، والكاليني؛ وينافس النبيذ السورّينتيني بنجاح، هذه الأنواع من النبيذ، فبعد تجربة قريبة ثبت أنه يمكن تعتيقه. وكل المنطقة المحيطة بفينافروس وتجاور السهول، هي منطقة غنية بكروم الزيتون.

4- أمّا المدن الساحلية التي تلي سينويسّا، فهي الآتية. ليتيرن، التي يقع فيها قبر سيبييون الأول الذي لقّب بالإفريقي. فقد أمضى الرجل آخر أيام حياته هنا بعيداً عن شؤون الدولة، ومعادياً لبعض مواطنيه. ويجري عبر ليتيرن نهر يحمل اسم المدينة عينه. ومثله تماماً نهر فولتورن سمّي مدينة واقعة عليه على مقربة من سينويسا. ويعبر مجرى هذا النهر فينافروس، ووسط كامبانيا. ثمّ تلي هاتين المدينتين، مدينة كوما التي أسّسها في الأزمنة الأولى، الخلكيديون والكوميسيون. وهذه المدينة هي فعلاً أقدم المدن الصقلية والإيتاليوتية فقد توصّل قادة الحملة، هيبوكليس الكومي، وميغاسفين

الخلكيـدي إلى اتفـاق أقـرت بموجبـه المدينـة مسـتعمرة خلكيديـة، لكنّهـا سـتدعى كوما. ولذلك فإن المدينة تدعى اليوم كوما، لكـن علـى أغلـب الظنّ أن الخلكيـديين هم الذين أسّسوها. وفي الأزمنة القديمة كانت المدينـة تعيش في بحبوحة، مثلها في هـذا مثل السـهل الـذي يـدعى سـهل فليغريـوس الـذي نقلـت الأسـطورة أحـداث قصـة العمالقـة إليه، انطلاقاً على ما يبدو من أن هذه الأرض كانت بسبب خصوبتها، موضع نزاعـات. أمّا فيما بعد، بعد أن غدا الكامبانيون أصحاب المـدن، فـإنهم غالبـاً مـا كـانوا يهينـون سكّانها، بل أكثر من هذا، إذ كانوا يعاشرون زوجاتهم. ومع ذلك لا تزال باقية هنـاك حتّـى الآن آثـار الثقافـة والعـادات الإغريقيـة. وحسـب بعضـهم أن اسـم كومـا مـأخوذ مـن الكلمـة الإغريقيـة الـتي تعـني «أمـواج»[10]، لأنّ الشـاطئ المجـاور هنـاك صـخريّ ومفتـوح للرياح. وفي كومـا أفضـل أنـواع أسمـاك الـتن الكـبيرة. وتوجـد في هـذا الخلـيج غابـة مـن الشجيرات تمتدّ على مراحل كثيرة في أرض رملية خاليـة مـن المـاء، وتـدعى هـذه الغابـة «غابـة الشـقيق الأصـفر». وهنـا جمـع قـادة أسـطول سيكسـتوس بومبيـوس عصـابات مـن القراصنة، في الوقت عينه الذي أعلن فيه هو انتفاضته في صقليا[11].

5- وعلـى مقربـة مـن كومـا تقـع رأس ميسـين، وفي الفاصـل بينهمـا تقـع بحـيرة أخيروسيا، التي تشبه الخور الضـحل. ولـدى تجاوزنـا ميسـين نـدخل عنـد الـرأس مباشـرة خليجاً؛ ويأتي بعد الخليج ساحل يخترق البرّ على شكل خليج عميق؛ وعلـى هـذا السـاحل تقع بايي والينابيع الحارّة، وهو مكـان ملائـم لتزجيـة الوقـت والاستشـفاء مـن الأمـراض. ويجاور بايي خليج لوكرين، وفي داخله [بحيرة] أفيرن الـتي تشـكّل مـن الأرض المنفصـلة عن الخطّ المائل الذي يمتدّ بين كوما وأفيرن حتّى ميسين، شبه جزيرة؛ فلا يبقـى هنـاك سوى برزخ عرضه مراحل عدّة، إذا انطلقنا مباشرة عبر النفق إلى كومـا نفسـها والبحـر الذي عندها. وكان ناس الجيل الذي سبقني مباشرة، قد ربطوا أسطورة «نيكيويا»[12] هـوميروس، ببحيرة أفـيرن. ويـروى إضـافة إلى ذلـك، أن كـاهن الأمـوات المتنبّـئ كـان موجوداً هناك فعلاً، وأن أوديسيوس قد جاء إلى هناك. إن أفيرن يمثل خليجاً عميقاً عنـد الشواطئ، له ثغر مفتوح، وعلـى الـرغم مـن أنـه ميـنـاء، إلا أنـه لا نفـع منـه كمينـاء، لأنّ أمامـه خلـيج كـبير ضـحل، هـو خلـيج لـوكرين. وتحـيط بخلـيج أفـيرن هضـاب صـخرية شاقولية مرتفعة من مختلف الجهات ما عدا جهة المـدخل. والحقيقـة أن الإنسـان يسـتثمر الآن هـذه الهضـاب، بينمـا كانـت فيمـا مضـى مغطـاة بغابـات كثيفـة عصـية، شـجرها كبير جدّاً، وقد حولت العقلية البشرية الخرافية هذا الخليج بسـبب هضـابه الصـخرية، إلى مسكن للأشباح. ويضيف السـكّان المحلّيـون إلى هـذا حكايـة أسـطورية تقـول، إن

الطيــور الـتي تطـير فـوق الخليـج تتسـاقط في المــاء وتهلـك بفعــل الأبخـرة المتصـاعدة منه[13]، كما يحصل في الكهوف البلوتونية[14]. فقد عدوا هذا المكان بلوتونياً أيضاً، وظنّوا أن الكيميريين كانوا يعيشون فيه. وعلى أي حال لم يكن يسمح بالإبحار هنا إلاّ للذين يستبقون إبحارهم بتقديم ذبيحة لاسترضاء آلهة العالم السفلي، وكان الكهنة الـذين يأخذون هـذا المكـان تعهّداً مدفوعاً، هـم الـذين يـؤدّون هـذا الفعـل المقدّس. وثمّة هناك عند البحر ينبوع ماء عذب، لكنّ السكّان المحلّيين يعزفون عن شرب مائه، لأنهم يعتقدون أن ماءه ماء ستيكس[15]. كما يوجد في مكان ما هنا كاهن متنبّئ، واستناداً إلى وجود الينابيع الحارّة هنا، استنتج السكّان المحلّيون، أن بحيرة بيريفليهيثونيس، وبحيرة أخيروسيا قريبتان من المكان. عدّاك عن ذلك أن إيثور الذي يوضّح الكيميريين هنا، يزعم أن هؤلاء كانوا يعيشون في مساكن محفورة في جوف الأرض (كانوا يدعونها «أرغيلا»)[16]؛ وحسب قوله، إنّ الكيميريين كان يتواصل واحدهم مع الآخر عبر أنفاق ما تحت الأرض، وكانوا يستضيفون الغرباء في مكان إقامة الكاهن المتنبّئ، الذي يقع عميقاً تحت الأرض. لقد كان الكيميريون يعيشون على مهنة التعدين، والعطاءات التي كان يتلقاها الكاهن المتنبّئ من زبائنه، وعلى العطاءات التي كان يوزّعها عليهم الملك المحلّي. وتسود عند خدم الكاهن المتنبّئ عادة موروثة عن الأجداد: ينبغي ألاّ يرى أيّ منهم الشمس، ولا يخرجون من كهوفهم إلاّ ليلاً. ولهذا قال هوميروس عنهم، إنهم

... لا يظهر أبداً

لعين الناس هناك، وجه هلليوس المنير.

(*الأوذيسا* XI، 15)

وفيما بعد أباد ملك ما الكيميريين، لأنّ النبوءة التي نقلها الكاهن المتنبّئ إليه، لم تتحقّق بما يخدم صالحه. بيد أن الكاهن المتنبّئ لا يزال موجوداً الآن أيضاً، ولكنّه انتقل إلى مقرّ آخر. إن هذه هي قصص أسلافنا الأسطورية؛ ولكن بعد أن قطع شجر غابة أفيرن بأمر من أغريبا، وشيدوا في المكان الآن منازل وحفروا النفق الذي كان يصل أفيرن بكوما، تبيّن أن هذه القصص كلّها ليست سوى أساطير. وعلى الرغم من أن كوكسيوس الذي شقّ هذا النفق والنفق الآخر، هو من ديكيارخيا (التي تقع قرب بايي)، وقد استخدم إلى حدّ ما الروايات المذكورة عن الكيميريين، إلاّ أن شقّ الأنفاق قد يكون عدّ بالنسبة إليهم تقليداً من التقاليد الموروثة في هذه المنطقة، عن الأسلاف.

6- أمّا خليج لوكرين فإنه يمتدّ عرضاً حتّى بايي. ويفصله عن البحر الخارجي

منحدر طوله 8 مراحل وعرضه مثلها، وفيه درب مطروقة. ويقال إن هرقل هو الذي بنى هذا المنحدر عندما كان يسوق ثيران هيرون. ولكن، بما أن الأمواج كانت تتدفق عبر أعلى المنحدر في أوقات العواصف، الأمر الذي كان يجعل عبوره صعباً، لذلك أمر أغريبا بزيادة ارتفاعه. وليس دخول الخليج متاحاً إلاّ للسفن الصغيرة، ومع أن الخليج لا يصلح مرسى، إلاّ أنه غنيّ جدّاً بالمحار. وحسب قول بعضهم إن هذا الخليج نفسه، هو بحيرة آخيروسيا، بينما يزعم أرتيميدور أنه أفيرن نفسها. أمّا بايي، فيقولون إنها أخذت اسمها من بايوس، وهو واحد من مرافقيّ أوديسيوس ومثلها ميسين سميّة [ميسين]. ويلي ذلك الساحل الذي عند ديكيارخيا، ثمّ المدينة نفسها. وفي الأزمنة الماضية لم تكن هذه سوى محطة سفن الكوميسيين، الواقعة على قمة التلّ، ولكنّهم أسّسوا هناك في زمن حملة هنيبعل، مستعمرة وبدّلوا اسمها إلى بوتيولا، وقد أخذوا الاسم من تسمية الآبار[17]؛ والحقيقة أن بعضهم يزعم أن هذا الاسم مشتق من المياه النتنة[18]، لأنّ المنطقة كلّها وصولاً إلى بايي وكوما، مياهها نتنة، مليئة بالكبريت، والنار، وينابيع مياهها حارّة. ويفترض بعضهم أن منطقة كوما دعيت على هذا الأساس، فليغرا[19]، وأن جراح العمالقة الذين سقطوا بضربات الصواعق، هي التي أثارت ثوران النار والماء. لقد تحوّلت هذه المدينة إلى ميناء تجاري ذي شأن كبير، لأنّ فيها مرسى اصطناعي، كان بناؤه ممكناً بفضل الخاصية الطبيعية لتربته الرملية. فهذه الأخيرة تشبه الجير وتشكّل معه مركّباً صلباً متماسكاً. ولذلك يبني السكّان سدوداً يمدونها في البحر بخليط من الحجر الكلسي والرماد الرملي[20]، وعلى هذا النحو يحوّلون الشواطئ المفتوحة على اتساعها إلى خلجان، يمكن أن ترسو فيها بأمان أكبر سفن الشحن. ويقع فوق هذه المدينة مباشرة، فوروم هيفيستوس[21]، وهو سهل تحيط به القمم البركانية التي توجد فيها فتحات كثيرة كالأفران، رائحتها كريهة. والسهل مليء بترسبات كبريتية.

7- وتأتي بعد ديكيارخيا نابولي، مدينة الكوميسيين. وفيما بعد عاد الخلكيديون واستوطنوا هنا مرّة أخرى، وكذلك بعض سكّان بيفيكوسا، وجماعة من الأثينيين، ولذلك دعيت المدينة نابولي[22]. ويعرضون هناك تمثال بارثينوبا، واحدة من السيرينيس، وبأمر الكاهن المتنبّئ تقام مباريات رياضية. وفي زمن لاحق، بعد النزاعات الأهلية، استقبل النابوليون بعض الكامبانيين بصفة مواطنين شركاء، وكانوا مرغمين على التعامل مع ألدّ أعدائهم كأفضل الأصدقاء، لأنهم كانوا قد جعلوا من أصدقائهم أعداء لهم. وهذا ما تشير إليه أسماء ديمارخييهم[23]، لأنّ هذه كانت في البداية أسماء إغريقية، ثمّ خالطت الأسماء الإغريقية بعد ذلك، أسماء

كامبانيـة. لقـد بقيـت هنـا كـثـرة كـثيرة مـن آثـار الثقافـة الإغريقيـة: الجمنـازيوم، والإيفيبيـوس[24]، والفراتريـات[25]، والأسمـاء الإغريقيـة، مـع أن حامليهـا كـانوا مـن الرومـان. ويقيمـون في زمننـا هـذا كـلّ أربـع سـنوات مباريـات مقدّسـة في العـزف الموسيقي[26]، وألعاب القوى تستمرّ عدّة أيام؛ وتتافس هذه المباريات الألعاب الشهيرة التي تقام دورياً في اليونان. وثمّة هنا نفق، الجبل بين ديكيارخيا ونابولي محفور كالجبل الذي عند كوما، وشقّت على امتداد مراحل كثيرة طريق يمكن أن تعبر عليها مركبتان مسيرهما متعاكس. ويتسرّب ضوء النهار إلى عمق النفق عبر كوى فتحوها في أماكن كثيرة[27]. وعدا عن هذا فإن في نابولي ينابيع مياهها ساخنة، وحمامات عامّة ليست حمامات بايي أفضل منها، مع أن عدد زوار هذه الأخيرة أكبر بما لا يقاس. ففي بايي نبتت مدينة جديدة ليست أصغر من ديكيارخيا، لأنّ القصور تبنى هناك بعضها فوق بعض. وفي نابولي يعيش الرومان الذين يزورونها لقضاء فترة راحة، نمط عيش إغريقي؛ فهؤلاء على وجه العموم أشخاص أثروا من عملهم في تعليم الشباب، أو أشخاص يتوقون إلى قضاء زمن شيخوختهم أو مرضهم بهدوء وسكينة. وهناك من الرومان أيضاً من يجد متعته في مثل نمط العيش هذا، فهم إذا يتواصلون مع جمهرة من الناس مستوى ثقافتهم مماثل لمستوى ثقافتهم هم، يستوطنون هنا، ويرتبطون بالمكان، ويختارونه مكاناً دائماً لإقامتهم.

8- وتتاخم نابولي مباشرة قلعة هرقل[28] الواقعة على راس تمتدّ في البحر، ومفتوحة للرياح الجنوبية الغربية إلى حدّ يجعل السكّان هنا في حالة صحّية سليمة تثير الدهشة. وفي زمن ما امتلك الأوسكيون هذه المدينة ومدينة بومبيوس التي تليها والتي يجري على مقربة منها نهر سارن، ثمّ امتلك المدينتين بعد ذلك الأوسكيون ثمّ التيرينيون، فالبيلاسيغيس، والسامنيتيون. بيد أن هؤلاء طردوا من هذه المنطقة أيضاً. وتشكّل بومبيوس الواقعة على نهر سارن، الذي ينقلون عبره البضائع إلى عمق البلاد، كما ينقلونها عبره أيضاً من هناك إلى البحر، تشكّل ميناء لنولا، وتوكرييا، وآكير، سميّة المستوطنة الواقعة قرب كريمونا. ويعلو فوق هذه الأماكن، جبل فيزوف الذي تغطيه على الدائر، ما عدا قمته، عزب ضواحي المدينة. أمّا قمة الجبل فإن قسمها الأكبر مستو، وهي قاحلة تماماً، ولونها كلون الرماد؛ وتظهر عليها تجويفات انهدامية في صدور الصخور لونها على السطح أسود كلون السخام؛ وتبدو هذه الصخور كما لو أن النار نخرتها. ومن هنا يمكننا أن نفترض أن النار قد اشتعلت يوماً ما في هذا المكان كلّه، وأن المكان كان يحتوي على فوهات بركانية نارية، ثمّ بعد أن نفذت المادّة

القابلة للاشتعال، انطفأت النار. وربّما يكمن في هذا سرّ خصوبة تربة ضواحي هذا الجبل؛ فيقولون إن شريط الأرض المغطّى في كاتانا برماد الحمم البركانية التي قذفها إيتنا، جعلت هذه البلاد صالحة لزراعة الكرمة. فالرماد البركاني يحتوي فعلاً على مادّة تجعل التربة المحترقة والتربة الخصبة، تربة دهنية[29]. وطالما التربة مشبعة بالدهن، فهي قابلة للاشتعال كأي أرض تحتوي على الكبريت، ولكنّها ما إن تجف حتّى تنطفئ وتتحوّل إلى رماد وتغدو تربة خصبة. وتلي بومبيوس مباشرة مدينة سيرينت التابعة للكامبانيين، ومن هناك برز في البحر أثينيوس، الذي يدعوه بعضهم رأس سيرينوس. ومعبد أثينا هذا شيّده أوديسيوس فوق قمة الرأس. والمعبر من هناك إلى جزيرة كابري قصير. وما أن تتجاوز هذه الرأس حتّى تظهر أمامك جزر صخرية قاحلة تدعى سيرينيس. وثمّة على جهة الرأس التي تتّجه نحو سيرينس شيء ما يشبه المعبد، ونصب التقدمات القديمة، لأنّ سكّان الأطراف كانوا يرون في هذا المكان مكاناً مقدّساً. وهنا ينتهي الخليج الذي يدعى كراتير؛ فهو محدود برأسين بحريتين - ميسين، وأثينيوس - تتّجهان جنوباً. فجزء من ساحل الخليج عامر بالمدن التي كنت قد ذكرتها، وجزؤه الآخر تزيّنه فيلات، ومزارع تتلو واحدتها الأخرى من غير انقطاع، بحيث ينشأ انطباع بأن ما تراه، هو مدينة واحدة.

9- وتقع أمام ميسين جزيرة بروخيتا، وهي كسرة انفصلت عن بيفيكوسا. وفي زمن ما جاء الأريتريون والخلكيديون واستوطنوا بيفيكوسا؛ ومع أنهم حقّقوا نجاحات كبيرة في الجزيرة بفضل خصوبة أرضها ووجود ترسبات من الذهب فيها، إلا أن النزاعات أرغمتهم على ترك الجزيرة؛ ثمّ طردتهم من هناك نهائياً، الهزّات الأرضية والحمم النارية وفيضان البحر والمياه الحارّة. وواقع الأمر أن مثل هذه الحمم تغزوا الجزيرة؛ فبسببها أرغم المستعمرون الذين نفاهم هيرون طاغية سيراكوزا، أن يغادروا الحصن الذي بنوه، ثمّ غادروا الجزيرة نفسها. وجاء النابوليون بعد ذلك وامتلكوا الجزيرة. ومن هنا أسطورة وجود تيفون تحت هذه الجزيرة؛ فعندما يلتفت تيفون، ينفث لهباً وماء، بل وينفث جزراً صغيرة بمياه تغلي، في بعض الأحيان. ولكن بينداروس يعبّر عن رأي أكثر واقعية، لأنه ينطلق من الظاهرات الواقعية: يحتوي الخليج كلّه، من منطقة كوما حتّى صقليا، على نار جوفية، وتوجد في أعماق الأرض كهوف تشكّل كلاً واحداً، ويتّصل بعضها ببعض وبالبرّ. ولذلك ليست إيتنا وحدها التي تملك هذه الخاصيات، كما يصفها كلّهم، إنّما تملكها كذلك الجزر الليبارية، والمنطقة الواقعة عند ديكيارخيا، ونابولي، وبايي، وبيفيكوسا. وهذا كلّه ما قصد إليه

بينداروس عندما يقول، إن تيفون تحت هذه المنطقة كلّها:

... والآن فــإن

صخور كوما وصقليا التي يطوقها البحر،

تتزاحم على صدره الأشعث.

(*فيثاغورس* I، 33)

وبحسب تيمييوس أن القدماء رووا عن بيفيكوساً كثيراً مما هو غريب؛ فقبل زمنه بقليل، قذف إيبوبيوس، وهو تل يقع في وسط الجزيرة، دمّرته هزّة أرضية، حمماً من النار، ورمى مرّة أخرى إلى البحر بقطعة من اليابسة استقرّت بينه وبين البحر؛ فتحوّل قسم من الأرض إلى رماد ارتفع عالياً في الجوّ، لكنّ عاصفة ما لبثت أن أهالته ثانية على الجزيرة؛ وتراجع البحر ثلاث مراحل، لكنّه عاد أدراجه بعد وقت قليل، وغمرت الجزيرة موجة مدّ جديدة. وعلى هذا النحو انطفأت النار في الجزيرة، لكنّ شدّة الصخب دبّت الفزع في قلوب سكّان البرّ ففرّوا هاربين عن الساحل إلى كامبانيا. ويظنّون أن المياه الحارّة هناك تشفي المرضى بداء الصدف. وفي الزمن القديم كانت في كابري مدينتان صغيرتان، لم يبق منهما سوى واحدة. وكانت هذه الجزيرة للنابوليين أيضاً. ومع أن هؤلاء فقدوا بيفكوسا في الحرب، لكنّ أغسطس قيصر منحهم إياها ثانية، لكنّه بالمقابل، جعل من كابري ملكية خاصة له وشيد فيها مباني. تلكم كانت مدن الكامبانيين الساحلية والجزر الواقعة قبالتها.

10- أمّا في داخل البلاد فإن المدينة الرئيسة هي مدينة كابويا، وهي فعلاً مدينة «زعيمة» حسب اشتقاق اسمها[30]؛ فالمدن الأخرى كلّها بالمقارنة معها، مدن صغيرة، ما عدا تيان سيديسين التي تعدّ بدورها مدينة ذات شأن، وتقع كابويا على طريق أبيوس، مثلها مثل المدن الأخرى التي تؤدّي منها إلى برينتيسي: كالاسيا، وكافديوس، وبينيفينت. أمّا كاسيلين فهي تقع باتجاه روما على نهر فولتورن. وهنا تمكن 450 من البرينيستيين المحاصرين من الصمود طويلاً في وجه هنيبعل عندما كان في أوج مجده، وبسبب الجوع بيع الميديمن[31] [من الخبز] بمئتي دراخما، لكنّ البائع مات جوعاً، بينما نجا الشاري من الموت. ولمّا رأى هنيبعل أنهم يزرعون اللفت قرب الأسوار، أذهله عنادهم، فهم كانوا يأملون في مقاومته حتّى ينضج اللفت. ويقال إنهم قد نجوا فعلاً من الهلاك، ما عدا بعضهم الذين ماتوا جوعاً أو سقطوا في ساحة القتال.

11- إضافة إلى المدن التي أتينا على ذكرها، توجد هناك أيضاً المدن الكامبانية الآتية التي كنت قد ذكرتها من قبل[32]: كاليس وتيان سيديسين، اللتين

يفصل بين حدودهما معبدان لفورتونا شيّدا على جانبيّ الطريق اللاتينية؛ ثمّ تليهما سويسولا، وأتيلا، ونولا، ونوكيريا، وأكيرا، وأبيلا، وسواها من المستوطنات الأصغر من هذه (ويقال إن بعضها سامنيتي). وفيما يخصّ السامنيتيين، فقد كان هؤلاء يشنّون في الماضي غزوات على لاسيوم وصلوا فيها حتّى مشارف أردييا، ثمّ نهبوا بعد ذلك كامبانيا، وبلغوا شأناً كبيراً من القوة. وواقع الأمر هو أن الكامبانيين الذين روِّضوا على الخضوع للحكّام الغرباء، سرعان ما أذعنوا لأوامر السامنيتيين. ولكن السامنيتيين أُبيدوا الآن تماماً، ففي أوّل الأمر تولى إبادتهم آخرون، ثمّ أنجز المهمّة سولاّ الذي نصّب نفسه دكتاتوراً على الرومان. فبعد سلسلة من المعارك نجح سولا في قمع انتفاضة الإيتاليوتين. وقد رأى الآن أن السامنيتيين وحدهم تقريباً الذين صمدوا وقاموا على رأي واحد، وأنهم استعدّوا للهجوم على روما نفسها. عندئذٍ دخل معهم في معركة دارت رحاها عند أسوار روما نفسها. فأُبيد قسم منهم في أرض المعركة، لأنّ سولاّ كان قد أمر بألاّ يؤخذ منهم أيّ أسير، أمّا القسم الآخر الذي رمى سلاحه (ويقال إن عدد هؤلاء كان حوالي 3 أو 4 آلاف مقاتل)، فقد أمر بأن يساقوا إلى معسكر في حقل مارس[33] ويحتجزوا هناك. وبعد ثلاثة أيام أرسل إلى هناك فرقة من الجند وأمرهم بقتل الأسرى كلّهم. ثمّ تابع ملاحقة السامنيتيين من غير توقّف، فأهدر دماءهم، وصادر ممتلكاتهم، إلى أن قضى على وجهائهم كلّهم أو طردهم إلى خارج إيطاليا. وكان يجيب كلّ من أدان قسوته في التعامل مع السامنيتيين، إن تجربته علّمته أن أيّ روماني لن يستطيع العيش بسلام طالما للسامنيتيين وجود مستقلّ. وقد تحوّلت مدنهم الآن فعلاً إلى مستوطنات بسيطة لا أهمية لها، وبعضها باد واندثر تماماً: بوفيان، وإيسيرنيا، وبانا، وتيليسيا (قرب فينافروس)، وسواها. ولا يستحق أي من هذه البلدات أن يدعى مدينة؛ أمّا أنا فإني أدخل في تفاصيل وصفها (حتى الضئيلة منها)، خدمة لمجد إيطاليا وجبروتها. وعلى أي حال فقد حافظت بينيفينت وفينوسيا على شأن جيّد حتّى يومنا هذا.

12- وتروى عن السامنيتيين الرواية الآتية أيضاً. تقول الرواية، إن السابين حاربوا الأومبريكيين طويلاً ونذروا للآلهة (كما يفعل بعض القبائل الإغريقية) كلّ المواليد التي تولد في هذا العام. وبعد أن حقّقوا النصر، قدموا قسماً من المواليد قرباناً، وكرّسوا ما تبقى للآلهة. وعندما حلّ بهم شحّ المحصول اقترح أحدهم أنه ينبغي أن يكرّسوا أطفالهم أيضاً للآلهة. فأقرّوا الاقتراح وكرّسوا لأريس كلّ الأطفال الذين ولدوا عندئذٍ. وبعد أن شبّ هؤلاء واشتدّ عودهم، أرسلوا ليبنوا مستعمرة، وقد أرشدهم ثور إلى الموقع. وعندما توقّف الثور واستلقى في أرض الأوبيكيين، الذين كانوا يعيشون

في قرى، طرد السابين السكّان المحلّيين واستوطنوا الأرض. أمّا الثور فقد نحروه ذبيحة لأريس الذي أعطاهم، بحسب قول المتنبّئ، الثور مرشداً. وقد يكون اسم «سابيليين»[34] الذي حملوه كواحد من أسمائهم، قد اشتقّ كصيغة تصغير من لقب حمله أسلافهم، ثمّ دعوا «سامنيتيين» (وينطقها الإغريق «ساوينتيين») لسبب آخر. وحسب بعض الأخبار، أن المستعمرين اللاكونيين قد عاشوا بين السامنيتيين، ولذلك أضحى هؤلاء أصدقاء للإغريق، بل وتسمى بعض منهم «بالبيتانيين»[35]. بيد أنه يخيل لي أن هذا الخبر قد اختلقه التارانتيون الذين أرادوا أن يتملقوا جيرانهم الأقوياء ليكسبوا بهم أصدقاء لهم. فالسامنيتيون كانوا يجنّدون أحياناً 80.000 مقاتل من المشاة، و8000 فارس. ويروى أنه يوجد عند السامنيتيين قانون ممتاز، يحض على البسالة والإقدام: لا يسمح بأن تزوج الفتيات للشبان الذين يريدونهم الوالدان؛ فيختارون كلّ عام 10 من فتيات أعرق العائلات و10 من فتيان أعرق العائلات، فتزف فتيات الفئة الأولى إلى شبان الفئة الأولى، وفتيات الفئة الثانية إلى شبان الفئة الثانية. وهكذا... وإذا ما تغيّر الشاب الذي نال هذا العطاء الكريم، وأضحى زوجاً سيّئاً، فإن العار يلحق به، وينتزعون منه المرأة التي أعطيت له زوجة. ثمّ يلي السامنيتيين الجيربينيون (وهم سامنيتيون أيضاً). وقد تلقى هؤلاء اسمهم من الذئب الذي أرشدهم إلى موقع مستعمرتهم؛ فالسامنيتيون يدعون الذئب «جيربوس». وتتاخم حدودهم حدود اللوكانيين الذين يعيشون في داخل البلاد. وهذا ما رمت قوله عن السامنيتيين.

13- بفضل خصوبة بلادهم عرف الكامبانيون السعادة والشقاء معاً، لكن بدرجة متماثلة. وقد وصل بهم الهوس بالبذخ إلى درجة أنهم كانوا يدعون إلى ولائمهم أزواجاً من المصارعين يحدّدون عددها حسب مقام الضيوف. وعندما استسلموا لهنيبعل ووفّروا لقواته الإقامة عندهم شتاء، أكرموا القوات القرطاجية ونعّموها بالملذات الشهوانية إلى درجة حدت بهنيبعل إلى القول، إنه على الرغم من أنه انتصر، إلاّ أن خطر الوقوع بأيدي أعدائه بات يحيق به، لأنّ جنوده عادوا إليه نساء لا رجالاً. وحينما بسط الرومان سيطرتهم على البلاد، علّموا الكامبانيين العقل والتعقل، إذ لقنوهم كثيراً من الدروس القاسية، وأخيراً قسموا البلاد بين المستوطنين الرومان. ومع ذلك فإن الكامبانيين ينعمون الآن بعيشهم في وفاق مع المستوطنين الجدد، ويحافظون على مجدهم الغابر بفضل عظمة مدينتهم الرئيسة وبسالة السكّان. ووراء كامبانيا وبلاد السامنيتيين، وصولاً إلى الفرينتانيين على سواحل البحر التيريني، يقطن فرع ليس ذا شأن من البيكينتينيين الذين يستوطنون ساحل البحر الأدرياتيكي؛ وقد هجّر الرومان

هؤلاء إلى خليج بوسيدونيوس الذي يدعى الآن خليج بيستان، أمّا مدينة بوسيدونيوس الواقعة وسط الخليج، فهي تحمل اسم بيستوم. وبنى السيباريتيون حصناً عند البحر، لكنّ المهاجرين الذين سكنوا هناك نقلوه إلى داخل البلاد؛ وفيما بعد انتزع اللوكانيون المدينة من السيباريتيين، ثمّ انتزعها الرومان بدورهم من اللوكانيين. ولكن النهر الذي يتشتّت في المستنقعات القريبة، يجعل جو المدينة غير صحّي. وبين سيرينوسا وبوسيدونيا تقع ماركينا، وهي مدينة أسّسها التيرينيون، لكنّ السامنيتيين يسكنونها الآن. ومن هنا إلى بومبيوس عبر نوكيريا، ليس أكثر من 120 مرحلة عبر البرزخ. وتمتدّ منطقة البيكينتيين حتّى نهر سيلاريدس الذي يفصل كامبانيا القديمة[36] عن هذه البلاد. ويروي الكتّاب عن هذا النهر، أن لمياهه خاصية فريدة؛ فعلى الرغم من أنها صالحة للشرب، إلاّ أن أيّ نبات ينزّل فيها يتحوّل إلى حجر، لكنّه يحافظ على لونه وشكله. وكانت بيكينسيا هي مدينة البيكينتيين الرئيسة، لكنّ الرومان طردوهم منها الآن بسبب تحالفهم مع هنيبعل، فتحوّلوا للعيش في قرى. وبدلاً من الخدمة العسكرية، فرضت عليهم الدولة واجب العدّائين والمطاردين (مثلهم في هذا مثل الليفكانيين والبريتيين: للأسباب عينها). وبهدف مراقبة البيكينتيين حصن الرومان ضدهم مدينة ساليرن التي تقع غير بعيد على البحر. والمسافة من سيرينوسا إلى سيلاريدس 260 مرحلة.